

يوسف بشير
حين حدث مالم يحدث
BREAKING NEWS
AYATOLLAH KHOMEINI DIES IN PLANE CRASH
The Boston News
RAFIC HARIRI ALIVE AFTER HIS ASSASSINATION ATTEMPT
DEMOCRACY!
استجواب
ستالين سوريا
اغتيال
الانقلاب
دار الساقي

يوسف بشير

حين حدث ما لم يحدث



نشرت هذه المقالات في موقع ”درج. كوم“ الإلكترونيّ

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٩

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٩

ISBN-978-614-03-0191-7

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على



DarAlSaqi@



دار الساقي



Dar Al Saqi

إلى الذين يملكون من الخيال ما يتيح لهم رؤية احتمالات أخرى ممكنة دائماً.

تغطية "بوسطن نيوز" لنجاة رفيق الحريري من محاولة اغتيال

ما إن انتشر الخبر ظهر أمس، في 14 شباط/ فبراير، حتى بدأت الوفود بالتقاطر على قصر قريطم. لقد أرادوا تهنئة صاحب القصر، الرئيس رفيق الحريري، بنجاته من محاولة الاغتيال التي أُعدّت بإحكام على ما يبدو، فيما كان موكبه يقترب من فندق السان جورج في منطقة الزيتونة. أعداد ضخمة من البشر تدفّقت ولا تزال تتدفّق على القصر، فيما كان يستقبلها الحريري الذي بدا متأثّراً بما حدث، خصوصاً أنّ اثنين من مرافقيه قُتلا من جرّاء الانفجار الهائل يوم أمس. بين وقت وآخر كان يردّ بشيء من العصبيّة على مكالمات هاتفيّة تصله. لكنْ لوحظ، حين اقترب منه أحد معاونيه وقال له إنّ رئيس الجمهوريّة إميل لحّود على الخطّ، أنّه أشار بيده إشارة غاضبة توحي أنّه لن يردّ على المكالمة. ما زاده استياءً شيوع معلومات في بيروت بأنّ الأجهزة الأمنيّة اللبنانيّة والسوريّة ما زالت، رغم مرور أكثر من 17 ساعة على الجريمة، متردّدة في مباشرة التحقيق بها. وهذا، في ظنّ أغلبيّة اللبنانيّين، وهم طبعاً مُحقّون في ذلك، إنّما يرقى إلى فضيحة.

ما زاد الشكوك والغضب أنّ وزير الداخليّة سليمان فرنجيّة كان قد دعا فعلاً، بعد ساعات على محاولة الاغتيال، إلى اجتماع في وزارته حضره قادة الأجهزة

الأمنيّة (ووزير سابق لا يملك أيّ صفة رسميّة هو ميشال سماحة). لكنّ الخبر الذي نقلته وكالة الأنباء المحلّيّة اقتصر على أنّ الاجتماع كان "لتحصين الوضع الأمنيّ حيال الاختراقات الإسرائيليّة".

على أيّ حال، ففي باحة القصر كان يقف ضابط شابّ عرّفني إلى اسمه: إنه وسام عيد الذي يبدو أنه خبير في أمور المتفجّرات عن بُعد. وقد فهمت أنه بدأ لتوّه العمل على فكّ أحجية الجريمة برصد بعض المكالمات الهاتفيّة التي سبقتها وواكبتها.

في هذه الغضون، كان وفد "حزب الله" أحد أكبر الوفود الحزبيّة التي أمّت قصر الحريري، وقد صافح رئيسُ الحكومة السابق أفرادَ الوفد بقلّة اكتراث واضحة، وبالبرودة نفسها استقبل كبيرَ الضبّاط السوريّين رستم غزالي الذي ترك مرافقيه في الخارج ودخل القصر وحده، لكنّه سريعاً ما انسحب حين لم يجد كرسيّاً مخصّصاً له في القاعة الكبيرة، كما لم يتبرّع أيّ من الحضور بتقديم كرسيّه إليه. أكثر من هذا، ردّد بعض المتجمهرين شتائم مسموعة الصوت له ولرئيسه، الرئيس السوريّ بشّار الأسد. وهذا ما لم يكن معهوداً أبداً في اللبنانيّين.

وقد حصلت "بوسطن نيوز" من الوزير السابق باسم السبع ومن هاني حمّود اللذين كانا وسط الجموع – وهما صحافيّان سابقان قبل أن يتحوّلا إلى سياسيّين مقرّبين من الحريري – على معلومات بالغة الأهمّيّة

حول ما ينوي الحريري فعله في الأيّام القليلة المقبلة. ذاك أنّه، وفقاً لتلك المعلومات، يزمع التوجّه بعد يومين أو ثلاثة إلى باريس، وقد يرافقه القطب الدرزيّ المعارض وليد جنبلاط وكذلك الوزير السابق مروان حمادة الذي تعرّض قبله لمحاولة اغتيال أصيب من جرّائها كما قُتل سائقه.

ويبدو أنّ الحريري ينوي تشكيل حكومة منفى في العاصمة الفرنسيّة، بعد أن يتوافق على تركيبتها مع العماد ميشال عون، المنفيّ إلى هناك منذ عقد ونصف العقد. ويتردّد أنّ البطريرك المارونيّ نصر الله صفير، الذي كان أوّل المتّصلين بالحريري للتهنئة، يبارك هذا الاقتراح. أمّا الأهداف التي ستطرحها حكومة المنفى المحتملة على نفسها، فيتصدّرها ثلاثة: المطالبة بانسحاب الجيش السوريّ فوراً من لبنان، ونزع سلاح "حزب الله" في أقرب وقت ممكن، وإطلاق سراح المساجين السياسيّين وعلى رأسهم قائد "القوّات اللبنانيّة" سمير جعجع. لكنْ يُشكّ كثيراً في قدرة اللبنانيّين المؤيّدين للحريري على إنجاز هذه المطالب من دون تدخّل خارجيّ ما، بل يُشكّ حتّى في قدرة القضاء المحلّيّ على القيام بواجباته في التحقيق في ظلّ النفوذ العسكريّ والأمنيّ للسوريّين و"حزب الله". ويُرجّح أن تكون هذه العوامل، معطوفة على حماية كبار المعارضين من محاولات اغتيال مماثلة، هي ما

يملي الانتقال إلى فرنسا وإعلان الحكومة من هناك بوصفها حكومة منفى.

وقد يكون من المبكر لأوانه الجزم في ردود أفعال العواصم العربيّة والدوليّة التي تربط الحريري بها علاقات خاصّة، سياسيّة وتجاريّة وشخصيّة. مع ذلك، فإنّ التعليق الفوريّ والحادّ اللهجة الذي أدلى به الناطق بلسان البيت الأبيض سكوت ماكليلّان يسمح بافتراض الأسوأ، خصوصاً وقد تضمّن كلامه تلك العبارة التي فُسّرت على أنّها تهديد: "إنّ الرئيس جورج دبليو بوش يعتبر ما حدث اعتداءً على الولايات المتّحدة الأميركيّة وعلى القيم المتمدّنة في العالم. وهو إذ يدين ذلك بأقسى ما يمكن، يطالب بانسحاب فوريّ للقوّات السوريّة من لبنان، وبتجريد سلاح الميليشيا المسمّاة حزب الله".

وهذا لا يلغي أنّ بعض العارفين بالحريري يجزمون بأنّه قد يتراجع عن خطوته لسببين: أوّلهما، مصالحه الماليّة والتجاريّة التي تمنعه من أن يقطع خيطاً قبل الوقوف على إرادات كثيرة، حكوميّة وماليّة، في السعوديّة وفرنسا وسواهما، وهو ما ينتقص من قدرته على تزعّم الوطنيّة اللبنانيّة. أمّا السبب الثاني، فإنّ الرجل، وهو بالطبع عملاق ماليّ، لا يملك الطاقة النضاليّة التي يتطلّبها عمل كهذا، ولا التكوين النضاليّ.

على الأرض، سريعاً ما اندلعت اشتباكات في منطقة طريق الجديدة في بيروت، وعلى أطرافها، بين مؤيّدين

لرئيس الحكومة السابق ومؤيّدين لـ"حزب الله". ويبدو، وفق معلومات تجمّعت لـ"بوسطن نيوز"، أنّ أجواء توتّر تخيّم على مدينة بعلبك وعلى مناطق أخرى في البقاع. حتّى اللحظة لم يصدر أيّ تعليق مباشر من حزب الله أو من القوّات السوريّة التي تتولّى مسؤوليّة الأمن في لبنان، لكنّ أحد العارفين باللعبة السياسيّة في هذا البلد، وباللغة المواربة التي تصاحبها (وقد رفض ذكر اسمه)، توقّع أن يلقي الأمين العام لـ"حزب الله" حسن نصر الله خطاباً يهنّئ فيه الحريري بنجاته ويتّهم إسرائيل بتدبير محاولة الاغتيال.

ويمكن القول إنّ اللبنانيّين، الذين لم يخرجوا من حروبهم الأهليّة إلّا قبل 15 عاماً، يعيشون اليوم هاجس العودة إلى تلك الحرب التي ستعلِن، في حال اندلاعها، الفشل النهائيّ للوصاية السوريّة على بلاد الأرز. وقد أتيح لنا، عبر مراجعة بعض شركات الطيران، التيقّن من إقبال كثيف على شراء تذاكر سفر إلى الخارج، وهو ما عبّر عن نفسه بسرعة هائلة، خصوصاً في أوساط الشبيبة المتعلّمة والأكثر تأهيلاً. كذلك أطلعَنا أحد مديري المصارف على مخاوف جدّيّة لديها من إقبال المودعين على التخلّص من الليرة اللبنانيّة واستبدالها بالدولار والعملات الأجنبيّة الأخرى. لكنْ بينما ينشغل المثقّفون بسيناريوات ديموغرافيّة وطائفيّة للحرب المحتملة، كالقول إنّ مناطق "لبنان الصغير" المسيحيّة والدرزيّة، ومعها المناطق السنيّة الساحليّة، ستجد نفسها

في مواجهة المناطق الشيعيّة في الجنوب والشرق، ينصرف آخرون إلى هموم مختلفة. فكثيرون بدأوا التفكير في صيانة الملاجئ التي تقع تحت مبانيهم السكنيّة، وأكثر منهم من سارعوا إلى تخزين موادّ غذائيّة أساسيّة، خصوصاً المعلّبات. لكنّ فئة وحيدة هي التي تمارس حياتها بكثير من الأمل والتفاؤل: إنّها فئة تجّار السلاح ومهرّبيه الذين تمكّنت "بوسطن نيوز" من التحدّث إلى واحد منهم رفض ذكر اسمه. لقد قال، وهو يتلاعب بحبّات سبحته، محاولاً كبت سعادته المفاجئة: "نحن نعلم أنّ السنّة والمسيحيّين والدروز سيسارعون إلى التسلّح كي يتعادلوا مع التسلّح الشيعيّ. وأنا في الحقيقة شيعيّ وأتعاطف مع "حزب الله"، لكنّ المصلحة تأتي أوّلاً". خلال تلك الجلسة كان نجله الشابّ الذي يحتسي الشاي يفرك يديه بكثير من الفرح، وقد فهمنا لاحقاً أنّه يبيع موتورات كهرباء، والكهرباء هي الأخرى مادّة يُقدَر أن يعطّلها انفجار القتال.

حين انتصر عبد الناصر في حرب 67

كان أكثر ما استرعى انتباه الصحافييّن الذين يغطّون اللقاء البالغ الودّيّة، في مطار القاهرة الدوليّ، قهقهة الزعيمين، السوفياتيّ ليونيد بريجنيف والمصريّ جمال عبد الناصر. لقد تعانقا بحرارة فيما ارتسمت الضحكة العريضة على شفتيهما، قبل أن يعلو صوتها ويصخب كاسراً كلّ التحفّظات التي تحيط بمناسبات كتلك. وهذا قد لا يكون مستغرباً في الزعيم المصريّ الذي عُرف، بين أمور أخرى، بحسّ الدعابة وببسمته التي استهوت قلوب الجماهير العربيّة، بين البحرين والمغرب. أمّا الزعيم السوفياتيّ المشهور بعبوسه وتجهّمه، فبدا سلوكه في مطار القاهرة في غاية الغرابة.

على أيّ حال، كان ظرف اللقاء سبباً وجيهاً للفرح والابتهاج، وتجاوز الأعراف الديبلوماسيّة كلّها. ففيما كانت تهبط طائرة بريجنيف المدنيّة، كانت طائرات عسكريّة سوفياتيّة يقودها طيّارون مصريّون تدكّ المطارات الإسرائيليّة، وتدمّر الطائرات الرابضة على أرضها. وما إن غادر الزعيم الشيوعيّ طائرته، وباشر التقدّم بتثاقل نحو مضيفه المصريّ، حتّى استوقفه أحد مساعديه وأسمعه آخر الأخبار الواردة، وهو أنّ الدولة العبريّة تطلب من مجلس الأمن إعلان وقف فوريّ للنار.

لكنّ الخبر الأهمّ في دلالته كان ما سمعه بريجنيف من عبد الناصر بعد عناقهما مباشرة:

"هل تعلم يا سيادة الأمين العامَ ما الذي تقوله الإذاعة الإسرائيليّة؟ إنّها تعلن تدمير تسعين طائرة من طائراتنا. تأمّل أيّ انهيار يصيبهم!". وهنا عاود الزعيمان ضحكهما الصاخب، الذي قطعته عبارة شكر جدّيّة من عبد الناصر:

"شكراً يا سيّد بريجنيف. إنّ مصر والأمّة العربيّة وأنا شخصيّاً لن ننسى لكم هذا الجميل الكبير. ما تحقّق هو انتصار للسلاح السوفياتيّ بقدر كونه انتصاراً للإرادة العربيّة".

وإذ نظر إليه الأمين العامّ مربّتاً على كتفه، فيما هما يهمّان بركوب السيّارة الرئاسيّة السوداء، أكمل عبد الناصر:

"ما نرجوه يا سيادة الأمين العامَ هو أن تمضوا في دعمنا لتحرير فلسطين كاملة وردّها إلى الأمّة العربيّة".

هنا أصيب الزعيم السوفياتيّ بما يشبه الجفلة، وقال:

"لم أفهم تماماً قصدك يا سيادة الرئيس. هل قلت تحرير؟ تحرير ماذا؟ إنّ ما قصدناه من هذه الحرب هو إجبار الإسرائيليّين على الرجوع إلى خريطة التقسيم في 1947، وأيضاً، وبوصفك حليفنا التقدّميّ، جعلَك الزعيم العربيّ المطلق بعد الانتكاسات التي تعرّضْت لها زعامتك بسبب انفصال سوريّا وحرب اليمن. الاتّحاد السوفياتيّ أيّد قرار التقسيم منذ طرحه قبل عشرين عاماً ولا يزال على موقفه هذا. أمّا التحرير وغير ذلك،

فيتسبّبان في تدخّل أميركيّ وأوروبيّ مباشر لا يسعنا مواجهته".

"لكنّ حركة القوميّة العربيّة..."، وقبل أن يكمل الزعيم المصريّ أكمل بريجنيف بدلاً منه: "دعنا يا جمال من القوميّات، نحن كماركسيّين لينينيّين لا نؤمن بهذه الأفكار البورجوازيّة. قبل سنوات قليلة اختلفنا نحن وإيّاكم لأنّكم أقمتم وحدة قوميّة مع سوريّا كما قاتلتم الشيوعيّين في العراق، باسم القوميّة، بحيث استفاد خصومنا الأميركيّون من هذا التصرّف الخطأ. ينبغي ألا نكرّر الماضي بعد الانتصار العظيم الذي نحقّقه اليوم معاً". وإذ همّ عبد الناصر بأن يقول إنّ الاتّحاد السوفياتيّ ينهض على قوميّة روسيّة مداورة، ردعه عن ذلك انعقاد الحاجبين الكثيفين لضيفه السوفياتيّ، فسادت لحظة صمت وارتباك. مع ذلك لم يرتدع الزعيم المصريّ إلّا لوقت قصير عاد بعده إلى موضوعه: "كنت أظنّ أنّ الماركسيّة-اللينينيّة تميّز بين قوميّات مضطهِدة وقوميّات مضطهَدة، أليس كذلك؟"، وأقفل عبارته على واحدة من ابتساماته الساحرة التي لم ينسحر بها بريجنيف فيما كان يراقب من نافذة السيّارة شوارع القاهرة:

"قل لي يا جمال... ما هي خطّتك الآن فيما نحن نحقّق هذا الانتصار العظيم؟".

"والله، يا عزيزي الأمين العامّ، كانت خطّتي حتّى هذه اللحظة تحرير فلسطين. أمّا وقد سمعت منك ما

سمعتُه للتوّ، فبات عليّ أن أتدبّر خطّة أخرى".

"حسناً تفعل يا جمال. الآن، وقد خاض الجيشان السوريّ والأردنيّ الحرب إلى جانبنا، وتقدّما داخل الأراضي الإسرائيليّة من الشمال والشرق، فعليكم أن تفكّروا في مكافأة الشعبين السوريّ والأردنيّ على تضحيات جيشيهما. وما أقترحه هو طمأنة النظام التقدّميّ الحليف في سوريّا إلى أنّك لم تعد ترغب في أيّ وحدة قوميّة معه. الشعوب تكره الوحدات يا جمال، ومع أنّ وحدتنا السوفياتيّة أمميّة وليست قوميّة، فإنّها تسبّب الكثير من الصداع لنا، خصوصاً مع الجمهوريّات الإسلاميّة. أمّا الأردن، فينبغي أن نكافئ شعبه بإطاحة نظامه والتخلّص من ملكه، الذي قد يطعننا في الغد بسبب ارتباطاته العميقة مع الأميركيّين والبريطانيّين...".

"لكنْ...".

"لكنْ ماذا يا جمال؟ أعرف أنّ ما قلته ليس هو جوهر الموضوع. جوهر الموضوع هو في القاهرة نفسها حيث تقيم السلطة، فاسمعني جيّداً: لقد حقّقتم اليوم نصراً باهراً تسمّونه أنتم قوميّاً، ونسمّيه نحن وطنيّاً. التسمية ليست مهمّة. المهمّ أنّه ينبغي استثمار هذا النصر بالطريقة التي استثمرنا فيها الانتصار في الحرب العالميّة الثانية بحيث أحكمنا السيطرة على أوروبا الوسطى والشرقيّة".

"هل من إيضاحات أكثر يا سيّد بريجنيف؟".

"نعم"، قالها الزعيم الشيوعيّ ثمَ أوقف الكلام بسبب مكالمة هاتفيّة تلقّتها السيّارة الرئاسيّة وعرف منها الزعيمان أنّ لبنان أيضاً أعلن دخوله الحرب "بهدف تحرير فلسطين"، كما جاء في بيان الحكومة اللبنانيّة.

"هذه ضمانة لا يرقى إليها الشك في أنّ إسرائيل على وشك الانهيار العسكريّ"، قال عبد الناصر مستعيداً سخريته التي طواها الحديث السابق عن القوميّة العربيّة. وبدوره ضحك بريجنيف ضحكة عابرة أرفقها بهزّة رأس اعتراضيّة على تعبير "تحرير فلسطين"، لكنّه ما لبث أن عاد إلى ما كان يشرحه قبل المكالمة:

"اسمع يا جمال. الموضوع، في آخر المطاف، هو السلطة. هل تعرف ما الذي سأفعله فور عودتي إلى موسكو مسلّحاً بهذا الانتصار العظيم في الشرق الأوسط؟ سأدعو دول حلف وارسو إلى مؤتمر نقرّر فيه غزو تشيكوسلوفاكيا وإطاحة زعيمها ألكسندر دوبتشيك. هل تعرف ماذا يفعل هذا الوغد؟ إنّه يفكّر في فصل بلده عن الكتلة الاشتراكيّة وترك الاتّحاد السوفياتيّ وجهاً لوجه مع ألمانيا الغربيّة ودول الحلف الأطلسيّ".

"لكنْ ما علاقة ذلك بأوضاع السلطة في مصر؟ هل تقترح عليّ مثلاً أن أهاجم السودان أو ليبيا؟".

"لا، لا، ليس هذا قصدي. ما قصدته أنّ هناك دوائر يمينيّة لا تزال داخل السلطة في مصر، ووجودها خطر مؤكّد عليكم: عبد الحكيم عامر، لا يجوز أن تُترك له

فرصة استثمار النجاح الكبير الذي أحرزه في هذه الحرب بوصفه قائد القوّات المسلّحة... أنور السادات، زكريّا محيي الدين، محمّد حسنين هيكل... كثيرون من أمثال هؤلاء ينبغي أن تتخلّص منهم قبل أن يطعنوك ويطعنوا التجربة الاشتراكيّة". وبغمزة من إحدى عينيه أضاف: "التخلّص منهم سهل وأنت بالطبع تعلم ذلك"، ثمّ أكمل: "هناك، في المقابل، من تستطيع الاعتماد عليهم كخالد محيي الدين وعلي صبري والشيوعيّين الذين طلبنا منهم أن يحلّوا حزبهم قبل أعوام قليلة كي يندمجوا في اتّحادكم الاشتراكيّ. لطفي الخولي ورفعت السعيد وسواهما مستعدّون أن يكتبوا لك ما تريد. لا حاجة لك بهيكل. رفاقهم العسكريّون والأمنيّون، خصوصاً منهم الذين تدرّبوا عندنا، في موسكو وفي برلين، مستعدّون أن يخدموكم بتسجيل أصغر واقعة تحدث وبسجن وتعذيب كلّ من يُشتمّ أنّه مصدر خطر على سلطتكم التقدّميّة. اضرب يا جمال، اضرب. أنت اليوم تحمل نصراً عظيماً يتيح لك أن تفعل كلّ شيء. حين أعدمتَ سيّد قطب كان يمكنك أن تعدم عدداً أكبر من الإسلاميّين الرجعيّين. تستطيع في أيّ وقت أن تقول إنّك اكتشفت مؤامرة وتفعل ذلك. الإعلام والثقافة أساسيّان هنا أيضاً. لقد فهمتُ من سفارتنا في القاهرة أنّ أفلاماً سينمائيّة لا تزال تُنتج في مصر من دون أن تكون ملتزمة التزاماً دقيقاً بالثورة، وأنّ كتباً لا تزال تُنشر لكتّاب من العهد الملكيّ بحجّة أنّ هؤلاء يكتبون

جيّداً ولا يُستغنى عنهم. ما من أحد لا يُستغنى عنه. لقد ذكروا لي أسماء ثلاثة كتّاب رجعيّين هم طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ، قيل إنّ نظامكم التقدّميّ لا يزال يرعاهم. لا يا جمال! نصيحتي لك أن تستغلّ هذه الفرصة للانتهاء من هذا العبث كلّه. إنّه يضرّ بالثورة ويهدّد النظام وقد يتأدّى عنه وضع يسيء إلى الصداقة مع الاتّحاد السوفياتيّ. في وسعك أن تطلق حملة لعبادة شخصيّتك، كلّ من يعترض أو يتحفّظ عليها تتّهمه بالخيانة...".

هنا انفرجت أسارير عبد الناصر الذي كان يستمع بكلّ جوارحه.

"تفضّل، سيادة الأمين العامّ، لقد وصلنا إلى قصر المنشيّة، فلنكمل الكلام في الداخل". لكنّ بريجنيف قال إنّه متعب بعد هذه الرحلة وبحاجة إلى الراحة، مفضّلاً إكمال الحديث في الغد قبل التوجّه معاً لحضور المهرجان الجماهيريّ الحاشد الذي رتّبه "الاتّحاد الاشتراكيّ العربيّ" احتفالاً بالنصر المشترك العظيم.

"حسناً، لا بأس" قال عبد الناصر، قبل أن يضيف: "الجماهير ستكون في انتظارنا غداً، إنّها دوماً في انتظارنا. تصبحون على خير يا سيادة الأمين العامّ".

نقاش صدّام وحافظ حول بناء الديموقراطيّة في بلديهما

ما إن اطمأنّ حافظ الأسد إلى إحكام سيطرته على سوريّا، وتصفية آخر جيوب المقاومة الموالية لخصمه صلاح جديد، حتّى حملته مروحيّة عسكريّة إلى نقطة حدوديّة مع العراق. هناك كان في استقباله نائب الرئيس صدّام حسين الذي أسرّ لبعض مرافقيه بأنّه لا يعرف السبب الذي دفع الأسد لطلب اللقاء به: "إنّني مُفَاجَأ جدّاً... ربّما جاء يطلب المصالحة وإعادة توحيد الحزب بعد انقسامه في 1966"، كما نُقل عنه.

لقاء القائدين البعثيّين بدأ بشيء من البرودة رغم تبادل القُبل الذي رافق مصافحتهما. لكنّ رجل سوريّا القويّ، الذي لم يُحدّد لنفسه منصبه الجديد بعد، ما لبث أن انتقل إلى الموضوع الجدّيّ الذي جاء من أجله:

"هدف زيارتي، يا رفيق صدّام، يختلف عن أهداف الزيارات المألوفة...".

"أليست الزيارة بهدف إعادة توحيد الحزب، يا رفيق حافظ؟".

"الحزب، الحزب، دعك من هذه المزحة السمجة التي اختبأنا طويلاً وراءها. لقد جئتُ لسبب مختلف كلّياً، إن لم يكن معاكساً كلّياً".

وهنا أطرق الأسد قليلاً فيما ثبّت صدّام عينيه عليه وهو ينظر بكثير من الفضول.

"سأحدّثك قليلاً عن سوريّا. عن أمور أظنّك تعرفها جيّداً، مع أنّني سأرتّبها الآن بطريقة مختلفة وأستنتج منها خلاصات مختلفة. مؤخّراً حين نفّذتُ الانقلاب الذي أطاح بزمرة صلاح جديد، انتبهت إلى أمرٍ لم أكن منتبهاً إليه من قبل. فقُطرنا لا يُحكم إلّا بالانقلابات العسكريّة على ما يبدو. منذ حسني الزعيم في 1949 حتّى الانقلاب الأخير، وما بين سامي الحنّاوي وأديب الشيشكلي وصولاً إلى عبد الكريم النحلاوي وموفّق عصاصة وعبد الكريم زهر الدين وزياد الحريري وجاسم علوان، لا تُحكم سوريّا إلّا بالانقلابات، ولا يلمع من أسماء السوريّين إلّا أسماء الانقلابيّين، الناجحين منهم والفاشلين. سألت نفسي أخيراً: لماذا؟ ما السبب؟ والنتيجة التي خرجت بها هي أنّ قطرنا يعجّ بتناقضات هي التي تجعل حكمه مستحيلاً. بين المدن والمدن وبين المدن والأرياف وبين الطوائف الدينيّة وبين القوميّات... تأمّل: إنّنا في 1958 توهّمنا أنّ في وسع عبد الناصر أن يحلّ تناقضاتنا فأهديناه بلدنا ودمجناه في مصر التي نُقلتُ شخصيّاً إليها وعشت فيها حياة عطالة مُهينة. بعد ثلاث سنوات اكتشفنا أنّ قدرة عبد الناصر على حلّ تناقضاتنا أقلّ من قدرتنا، وأنّ مشكلاتنا زادت بعد الوحدة بدلاً من أن تنقص...".

هنا، قاطعه صدّام الذي ازدادت حيرته، لكنّه من قبيل المسايرة، علّق قائلاً: "ونحن في العراق ليست حالنا أفضل. لقد سبقناكم في الانقلابات التي بدأناها مع بكر

صدقي في 1936 ورشيد عالي الكيلاني في 1941 ثمّ كانت ثورة 14 يوليو وبعدها خلاف قاسم وعارف الذي تلته الثورة على قاسم ثم انقلاب عارف علينا قبل أن ننقلب نحن على أخيه عبد الرحمن. والآن، وهذا سرّ أرجو أن يبقى بيننا، أنا متخوّف من انقلاب يشنّه علينا حردان التكريتي، لهذا أفكّر في أن أعالجه بطريقتي". ويبدو أنّ صدّام شاء أن يداعب حافظ قليلاً: "ألستَ متخوّفاً من شيء مماثل يفعله مصطفى طلاس؟".

"مصطفى! أنت لا تعرفه يا صدّام. إنّه لا ينفع لشيء. اليوم هو مهتمّ بالأبراج وملكات الجمال، وأنا أوفَر له كلّ ما يسلّيه إضافة إلى لقب وزير دفاع". وإذ قهقه الاثنان، عاد حافظ إلى موضوعه: "إنّ الشعب العربيّ في القطرين السوريّ والعراقيّ..."، فقاطعه صدّام: "إذا كنّا كلّما أردنا أن نقول "السوريّين والعراقيّين" قلنا: "الشعب العربيّ في القطرين السوريّ والعراقيّ" فلن نصل إلّا بعد أربع ساعات إلى الموضوع الذي سنناقشه. آن لنا أن نتحدّث يا حافظ بلغة رشيقة تشبه الحقيقة ولو قليلاً".

"فعلاً يا صدّام. هذه لغة الأستاذ ميشال [عفلق] التي لا تعني شيئاً في النهاية. هذا الرجل صرف الكثير من الوقت للخروج بهذه الترّهات: "القوميّة حبّ قبل كلّ شيء" و"الاشتراكيّة انتصار الحياة على العدم". تأمّل هذه العبارات الفارغة التي كانت تسحرنا أيّام الشباب...".

"نعم، آن أوان مغادرة الإنشاء والبحث عن المعاني وقول الكلمات التي تعني...".

"لهذا جئت لأعرض عليك، يا رفيقي صدّام، ما توصّلتُ إليه، وهو أنّ الانقلابات في بلدينا ما كانت لتزدهر إلّا لأنّ بلدينا مفتّتان كثيراً: جماعات، مناطق، طوائف، قوميّات... عندنا في سوريّا جماعات تعود إلى ما قبل الإسلام...".

"وعندنا في العراق جماعات تعود إلى ما قبل المسيحية، بل إلى ما قبل اليهوديّة...".

"أليس لهذا السبب ازدهر "حزب البعث" في بلدينا، وهو الحزب الذي قال مؤسّسه إنّ الأكراد وأمازيغ المغرب عرب غصباً عنهم؟ أليس لأنّنا مُفتّتون جدّاً كنّا بحاجة إلى حزب ينكر الواقع إلى هذا الحدّ ويقول إنّنا موحّدون جداً؟".

"هل أفهم منك يا حافظ أنّك جئت تطالبني بعمل منسّق ومشترك لإلغاء "حزب البعث"؟".

"هذا صحيح، لكنّ هدفي أبعد من ذلك. فالعراق وسوريّا، كما تقول تجربة الانقلابات، لا يُحكمان إلّا بطريقة من اثنتين: إمّا نظام قمع حديديّ كاسح وكامل يستأصل كلّ سياسة وكلّ تناقض وكلّ خصوصيّة تتمتّع بها جماعة من الجماعات، ويستأصل احتمالات الانقلاب بالتالي، وإمّا نظام تعدّديّ ولامركزيّ...".

"هل لك أن توضح أكثر؟".

"أنا شخصيّاً تعبت من الانقلابات، ولن أكون مستعدّاً لإقامة نظام يغرق في دماء الناس من أجل الحرص على وحدة البلد المشروطة بتماسك النظام وهيبته. ما أودّ اختباره هو إرجاع الأحزاب السياسيّة إلى الحياة ثمّ إعلان انتخابات حرّة ونزيهة، فضلاً عن اعتماد لامركزيّة موسّعة إداريّة وثقافيّة وغير ذلك. "حزب البعث"، إذا ما تقرّر الإبقاء عليه، يمكن أن يخوض المنافسة الديموقراطيّة مثله مثل باقي الأحزاب...".

"لكنّه حتماً سيخسر عندكم كما عندنا...".

"ليكن ذلك. في هذه الحال تكون هذه كلمة الشعب".

هنا انكفأ صدّام على تأمّل ذاتيّ قطعه بعد دقائق قليلة فيما حافظ متشوّق لأن يسمع رأيه:

"ماذا ألمّ بك يا حافظ؟ هل أنت على ما يرام؟ تعدّديّة؟ إرادة الشعب؟ ماذا أسمع؟"، وبعد صمت الطرفين لوهلة أكمل صدّام كأنّه يفيق من غيبوبة:

"ما تقوله يا حافظ ربّما كان ينطوي على بعض الوجاهة. أنا أيضاً تعبت من الانقلابات ومن القتل. وأعرف، كما تعرف أنت، أنّ البقاء في السلطة ومنع المزيد من الانقلابات يعني مزيداً من القتل. لكنّ الموضوع أعقد ممّا تتصوّره، وأنا في الحقيقة أخشى أنّنا إذا اعتمدنا الديموقراطيّة سوف نُقتل نحن، سوف يقتلوننا يا حافظ...".

"من سيقتلنا؟ في الديموقراطيّة لا قتل ولا قتال...".

"بلى، يقتلنا أولئك الناس الذين قتلنا أبناءهم وإخوتهم. فالديموقراطيّة ستخفّف قبضة الأمن وتزيل الحراسات عنّا، ثمّ إنّ الناس لن ينقلبوا بين ليلة وضحاها إلى أشخاص ديموقراطيّين وسلميّين. العراقيّون لا يتناسون الثأر بسهولة، وأظنّ أنّ السوريّين يشبهونهم في هذا... أرجوك أن لا تقول لي: فليقتلونا فداءً للديموقراطيّة. هذا ما لا أستطيع أن أهضمه في يوم واحد، خصوصاً منك يا حافظ".

"المسألة أبسط من ذلك يا عزيزي صدّام. نحن نعلن قيام الديموقراطيّة ونختفي خلال مرحلة انتقاليّة تمتدّ إلى ثلاث سنوات: أنا أقيم في بغداد وأنت تقيم في دمشق. فإذا أرادوا أن يقتلوا فليقتلوا أحمد حسن البكر عندكم أو مصطفى طلاس عندنا. في هذه الغضون، نغتال أقارب مَن قتلناهم ممن نخشى أن يقتلونا، وبهذا يستقرّ الأمر نهائيّاً لنا وللديموقراطيّة. هذا ما يمكن أن يتولّاه عندنا أخي رفعت، وعندكم أخوك برزان".

"لا أصدّق ما أسمعه منك يا حافظ. نعلن الديموقراطيّة ونهرب! أليس الأمر برمّته مسخرة!؟، ثمّ إذا عملنا على قتل أقارب مَن قتلناهم، هل ستعلم كم سنقتل، وكم سيستغرق ذلك حتّى لو نفّذه رجال أكفّاء كأخي وأخيك؟".

"دعني أوضح. هذه ستكون مجرّد مرحلة انتقاليّة من ثلاث سنوات، ومَن أوحى لي بهذه الفكرة هو مستشاري الدكتور جورج جبّور ومساعد شابّ له اسمه

عماد فوزي الشعيبي. هل سمعتَ بهما؟ قالا لي إنّه بعد ثلاث سنوات على الأكثر يعود كلّ منّا إلى بلده بوصفه زعيم الديموقراطيّة وقائدها التاريخيّ".

"لكنْ في حدود علمي، هذه الديموقراطيّة لا تريد زعماء وقادة تاريخيّين. لقد قرأت مرّة أنّ الإنكليز الذين أحرز لهم تشرشل انتصار الحرب العالميّة الثانية، كافأوه بأن أسقطوه في الانتخابات! هل تريد شيئاً كهذا؟ هنا، في منطقتنا، تكون المكافأة بقتلنا. هذا حتميّ يا عزيزي".

"شو هالحكي هاد! لم أسمع بما تقوله عن تشرشل... عرصات، أولاد كلاب، هكذا كافأوه! كان لازم ينيك امّهن".

"نحن نعرف أنّ الإنكليز قواويد. لكنّ القوّادة الكبرى هي هذه الديموقراطيّة. ركّز معي قليلاً يا حافظ: الديموقراطيّة لا تعرف الوفاء، ونحن شعب يُعَدّ الوفاء من شيمنا".

"هل أفهم منك أنّ الديموقراطيّة لا تناسبنا حضاريّاً؟".

"بالطبع، بالطبع، لا بل حتّى لو نجونا من الثأر فإنّ الديموقراطيّة نفسها قد تحاسبنا على ما فعلناه في السابق".

"أوف... لو حاسبوني لقطعوني إرباً إرباً".

"وماذا أقول أنا؟".

"إذاً ما الذي تقترحه يا صدّام؟".

"أقترح أن تطوي هذه الأفكار نهائيّاً وأن تحكم سوريّا بقبضة من حديد".

"اتّكلنا على الله".

"في أمان الله".

لكنْ ما إن توجّه حافظ نحو مروحيّته العسكريّة بعد المصافحة والعناق، حتّى ناداه صدّام: "حافظ، حافظ، هذان الشخصان اللذان استشرتَهما، جبّور والشعيبي، يُستحسن أن تُعدمهما حال وصولك إلى دمشق. في بغداد أشخاص يشبهونهما يتفذلكون ولا يفهمون شيئاً، وأنا سأتولّى أمرهم بنفسي. طريقة هؤلاء في دفاعهم عن أنظمتنا لا تفعل إلّا إضعاف هذه الأنظمة. لقد كدتَ تتزحلق على قشرة موزهم عن الديموقراطيّة".

"وهو كذلك يا عزيزي، لا مكان للغباء والغلط بعد الآن".

بعد احتراق الطائرة التي أقلّت الخميني إلى طهران

تباينت المشاعر وردود الأفعال على الفاجعة التي ألمّت بآية الله الخميني ورفاقه العائدين معه من باريس إلى طهران كي يتسلّموا السلطة فيها. فاحتراق طائرتهم، فوق الأجواء التركيّة، أثار غضباً واسعاً بين مؤيّديه ومعتنقي عقائده الدينيّة والسياسيّة، كما أثار ارتياحاً لم يجرؤ أصحابه على التعبير عنه في البيئة المؤيّدة لشاه إيران، والتي أحبطتها مغادرة الأخير للبلاد تحت وطأة التظاهرات الشعبيّة الغاضبة. على أنّ فئة أعرض من الإيرانيّين، على ما يبدو، شعرت بأنّ رحيل الخميني قد يُضعف قبضة الأطراف الأكثر تشدّداً بين الدينيّين، وقد يتيح فرصة أكبر للذين ينوون إقامة نظام ديموقراطيّ حديث في البلاد.

على أيّ حال يبدو أنّ مصرع الخميني في الجوّ أطلق في الحوزات الدينيّة حركة نقاش محتدم تعدّى العاصمة طهران ومدينة قم الدينيّة. وقد سجّل البروفيسور روي متّحدة، الأميركيّ ذو الأصل الإيرانيّ والمتابع الوثيق لأخبار إيران ودلالاتها، وجود تيّارات دينيّة ثلاثة، وبالتالي مواقف ثلاثة، حيال المسألة:

أمّا التيّار الأوّل، فيقوده آية الله محمّد بهشتي الذي وصل لتوّه من برلين عبر طرابلس، إذ تربطه علاقة وطيدة بالعقيد الليبيّ معمّر القذّافي الذي يقال إنّه يمدّه بالمال وبتسهيلات أخرى. ويساجل هذا التيّار، وهو يُعدّ

الأقوى في القواعد الشعبيّة المؤمنة والجذريّة، بالاستناد إلى ما يسمّيه "نظريّة العفاريت". ذاك أنّ الخميني حين توجّه بالطائرة قبل سنوات من العراق إلى فرنسا، كره الطيران وخافه وسمّى الطائرة "جَمَلاً هائماً على وجهه في الفراغ". ووفق بهشتي نفسه، فإنّ الخميني أخبره أنّه خنق بيده عفريتاً كان على متن تلك الطائرة، وأنّه يتوقّع من العفاريت أن تحاول الانتقام منه عاجلاً أو آجلاً. أمّا تفاصيل هذا الدور، فهو ما ينكبّ على دراسته الآن أحد أبرز المقرّبين من بهشتي، محمّد تقي مصباح اليزدي الذي يُعدّ ذا خبرة في العفاريت استثمر فيها عشرات السنين ومئات الكتب. وينتظر عناصر هذا التيّار إجابات اليزدي عن أسئلة محدّدة: كيف صعد العفاريت إلى الطائرة بباريس؟ كيف خدعوا قائد الطائرة ومعاونيه؟ كيف نجوا بأنفسهم بعد احتراق الطائرة؟ وكيف يمكن توجيه ضربة انتقاميّة لهم، وأين؟ ويُفترض، وفقاً للمعلومات المتوافرة، أن يُصدر اليزدي تقريراً مفصّلاً بالأمر بعد انكشاف هذه الحقائق كلّها.

وأمّا التيّار الثاني، فيرمز إليه آية الله محمود الطالقاني الذي يُعرف في إيران بتيّار "اليسار الإسلاميّ". وهؤلاء لا يبرّئون العفاريت كلّيّاً، لكنّهم يفضّلون عدم المبالغة وعدم تحميلها وحدها المسؤوليّة. ولدعم وجهة نظره يتساءل الطالقاني: "لماذا توفّي المفكّر الإسلاميّ الكبير علي شريعتي قبل أقلّ من عامين على احتراق طائرة الخمينيّ؟"، ثمّ يستخلص

وجود مؤامرة محبوكة بإتقان على يد الرجعيّين في المنطقة ومعهم دول الاستكبار العالميّ: فانفجار الطائرة فوق تركيّا يعني أنّ "الحلف الأطلسيّ" معنيّ بالأمر. أمّا رحيل شريعتي في بريطانيا، فبرهان آخر يذكّر بالتاريخ الاستعماريّ الخبيث لذاك البلد الذي حاول تقسيم إيران في 1907. إذاً، الأمر ليس بريئاً، وينبغي، وفق هذا السيناريو، وضع العفاريت ودورها ضمن إطار اللعبة الاستكباريّة للقوى العظمى ومصالحها وأتباعها. وإذا صحّ وجود شيء من التعاون والتنسيق بين عفاريت الجوّ والدول الطاغوتيّة على الأرض، فهذا ما ينبغي أن يزيد إصرارنا على كشف "ديالكتيك العلاقة بين العفاريت والأشرار المستكبرين".

لكنّ التيّار الدينيّ الثالث هو الذي يعبّر عنه آية الله محمّد كاظم شريعتمداري الذي يبدو أنّه يحظى بتأييد الأكثريّة بين كبار علماء الدين. وشريعتمداري، كما هو معروف، كان على الدوام من نقّاد الخميني ومن المعترضين على نظريّته في "ولاية الفقيه". وفي أغلب الظنّ لعب هذا الماضي دوره في إحراج شريعتمداري الذي عوّضه بالمبالغة في تظاهره بالأسى جرّاء مقتل منافسه وإعلانه حداداً يدوم أربعين يوماً. لكن ثمّة من يزعم أنّ شريعتمداري اتّصل، بُعيد سماعه الخبر، برجل دين نصف إيرانيّ نصف لبنانيّ يقيم في بيروت، وقال له إنّ موت الخميني أسعده، رغم كلّ شيء، لأنّه طمأنه إلى مستقبل إيران. وعلى ذمّة ناقل الخبر، أضاف

شريعتمداري: "في 1963، ومن أجل أن أجنّبه حكم الإعدام، أعلنت أنّه بلغ رتبة المرجعيّة، علماً أنّه لا يفقه الكثير في علوم الدين، فانظر كيف ردّ الجميل: بتأليف نظريّة تخوّله أن يصبح، هو وحده، نائباً للإمام الغائب. إنّ حبّ هذا الرجل للسلطة لا يُصدَّق!".

على أيّ حال، فخارج الدوائر الدينيّة، تتسارع حركة تأليف الحكومة الجديدة التي يُرجّح أن يرأسها شهبور بختيار، الإصلاحيّ الذي استعاد شيئاً من القوّة والثقة بالنفس بعد احتراق طائرة الخميني وانشغال البيئة الدينيّة بتفسير تلك الفاجعة. ويبدو أنّ نظريّة بختيار مفادها أنّ الحركة الدينيّة الراديكاليّة، من دون الخميني، ستنشغل طويلاً عن مسألة السلطة السياسيّة بالنقاشات في العفاريت والجنّ.

على أنّ العمل الأوّل الذي فعله بختيار، بعد تعزيته بـ"فقيدنا الكبير والجليل"، كان إلقاءه خطاباً مطوّلاً في مهرجان شعبيّ في شمال طهران ذكّر فيه بدوره كوطنيّ وإصلاحيّ إلى جانب محمّد مصدّق في الخمسينيات، وبأنّ الشاه اضطُرّ اضطراراً إلى تسميته آخر رئيس حكومة في عهده كمحاولة منه لمصالحة دعاة الإصلاح.

ويبدو من معلومات رشحت أنّ تشكيله الحكومة قطع شوطاً بعيداً، وأنّ بختيار سيزور شريعتمداري كي يحصل على مباركته شبه المضمونة. والجدير بالذكر، على ما تناقلت أوساط قريبة من شريعتمداري، أنّ

مطالباته اقتصرت على "التمنّي" بتوزير "رجل دين شابّ ومنفتح" يُرجّح أنّ اسمه محمّد خاتمي.

ويُعتقد أنّ وزارة الخارجيّة سيتسلّمها واحد من اثنين هما، مثل بختيار، من قادة "الجبهة الوطنيّة" التي أنشأها مصدّق ومن أعمدة النظام الجديد: المهدي بازركان وكريم سنجابي. وهذا علماً أنّ المهمّات الأساسيّة الثلاث لمن سيتولّى هذا المنصب ستكون التالية:

أوّلاً: طمأنة الغربيّين، وخصوصاً الأميركيّين، إلى أنّ النظام الجديد ليس معادياً لهم، وأنّه سوف ينكبّ على بناء نظام ديموقراطيّ يمكنهم أن يعزّزوه كثيراً إذا دعموه بالاستثمارات والمساعدات الماليّة.

ثانياً: إجراء الترتيبات اللازمة مع دول الخليج لتأمين الانسحاب من الجزر الثلاث، أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى، التي سبق أن احتلّها الشاه. ذاك أنّ النظام الجديد، ووفق تعبير بختيار، "لا يملك نوازع إمبرياليّة أو توسّعيّة".

ثالثاً: المساهمة في إطلاق حوار إسرائيليّ–فلسطينيّ لتذليل هذه المشكلة المزمنة في الشرق الأوسط، على أن يجري ذلك بالتفاهم مع الرئيس المصريّ أنور السادات الذي وقّع للتوّ "معاهدة كامب ديفيد" مع الإسرائيليّين.

ويقال، في المقابل، إنّ بختيار، لكي يحدّ قليلاً من انخراط إيران في الحرب الباردة ولا يثير غضب

السوفيات، عرض على نور الدين كيانوري، الأمين العامَ لـ"حزب تودة الشيوعيّ"، تسلّم منصب يُرجّح أنّه وزارة الزراعة، حيث ينوي النظام الجديد "تعميق الثورة البيضاء" التي نفّذها الشاه و"العمل على سدّ ثغراتها على نحو يستفيد منه الفلّاحون والعمّال الزراعيّون الذين لا يملكون أرضاً". أمّا شؤون المرأة، فقد تتولّاها مريم رجوي المناضلة في تنظيم "مجاهدي خلق"، مع أنّ "بعض الليبيراليّين" يتحفّظون على ميولها "الذكريّة" و"قلّة نسويّتها"، فيما سيُعهد إلى القياديّ الكرديّ عبد الرحمن قاسملو بوزارة الأقلّيّات التي ستضع على الطاولة علاقة تلك الأقلّيّات بالسلطة المركزيّة في طهران. وقد طُرحت أسماء كلّ من مصطفى شمران وإبراهيم يزدي وصادق قطب زادة لتولّي وزارات الداخليّة والدفاع والتعليم، لكنّ معلومات تردّدت تفيد أنّ لبازركان وسنجابي تحفظاتهما: "فهؤلاء – كما نُسب إلى الأوّل – متورّطون في علاقات مع أنظمة ديكتاتوريّة وتنظيمات إرهابيّة"، فيما قطب زادة تحديداً "عميل لحافظ الأسد الذي أعطاه جواز سفر سوريّاً"، وفق سنجابي الذي لا يكتم قرفه كلّما تحدّث عن أنظمة عسكريّة.

على أنّ الإشكال الأكبر يتعلّق بأستاذ الاقتصاد في فرنسا أبو الحسن بني صدر الذي تردّد أنّ بختيار اقترحه وزيراً للاقتصاد. وهنا تتجمّع عناصر قصّة لا تخلو من طرافة، فبني صدر الذي تأخّر عن اللحاق

بطائرة الخميني في باريس، وصل إلى طهران على متن طائرة أخرى. هكذا أشاع محمّد تقي مصباح اليزدي، بموافقة بهشتي، قصّة تقول إنّ بني صدر أحد العفاريت المتورّطين في انفجار طائرة الخميني. وبالفعل، عُلّقت على الجدران في أحياء كثيرة جنوبَ طهران صور لبني صدر كُتب تحتها: "العفريت"، كما عُرف من أسماء الذين علّقوا الصور اثنان: رجل دين اسمه صادق خلخالي، وشابّ يصفه البعض بالشعوذة وتحضير الأرواح اسمه محمود أحمدي نجاد. والحال أنّ بعض ما نُسب إلى هذا الأخير انشغاله بسؤال يعتبره عميقاً وأساسيّاً جدّاً: هل في وسع بني صدر، كعفريت، أن يتبخّر ويختفي عن الأنظار فلا يظهر إلّا في فرنسا، أو في أيّ مكان بعيد آخر لا تطاله فيه أيدي الثوريّين الإسلاميّين؟

وعلى العموم، بات ضمّ بني صدر إلى الحكومة أمراً معقّداً، بل مقلقاً، بعد هذه الحملة عليه. فهو يستفزّ هذه الجماعة المهتمّة بمطاردة العفاريت، أو تبعاً لعبارة نُسبت إلى بازركان: "دعوهم لشأنهم، ولا تستفزّوهم ببني صدر أو بسواه. نستطيع في أيّ وقت أن نتدبّر وزير اقتصاد أحسن منه. المهمّ الآن أن نمضي في تشكيل الحكومة وبناء إيران الجديدة".

محمّد نجيب وقد هزم عبد الناصر

ليلة الأوّل من آذار/ مارس 1954، أحضر إلى القبو التابع لوزارة الحربيّة الضبّاط القياديّون في تنظيم "الضبّاط الأحرار". لقد أخرجوا من بيوتهم بمقادير متفاوتة من العنف، إذ بدا على جبين جمال عبد الناصر جرح طفيف، فيما لم يُتح لأنور السادات أن يغيّر بيجامته المقلّمة فجيء به وهو يرتديها.

عبد الناصر كان يحدّق في أرض الغرفة بعينين زائغتين فيما يفرك يديه، يحيط به من جهة اليمين عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وحسين الشافعي وصلاح سالم، ومن جهة اليسار أنور السادات وعبد اللطيف البغدادي وزكريّا محيي الدين وجمال سالم وحسن إبراهيم. إنّهم قادة التنظيم الذي نفّذ الانقلاب في 23 تمّوز/ يوليو 1952، وكانوا يعدّون العدّة لإطاحة اللواء محمّد نجيب الذي استخدموه كواجهة لمجرّد كونه صاحب رتبة عليا في الجيش، قبل أن يكتشفوا أنّ للرجل قناعات تخالف بقوّة قناعاتهم، وأنّه مستعدّ للقتال تمسّكاً بها. هكذا عاجلهم بانقلاب استباقيّ أدّى إلى نقلهم من وزاراتهم ومكاتبهم الفخمة إلى هذا القبو الكئيب.

وما هي إلّا دقائق حتّى دخل عليهم نجيب محاطاً بخمسة ضبّاط أو ستّة، فاستقبله معظمهم بالوقوف ما عدا عبد الناصر والسادات.

الحوار الساخن سريعاً ما بدأ، فوجّه نجيب كلامه إلى الرجل الأوّل في "الضبّاط الأحرار": "لستُ أنا، يا جمال، من غدر بكم وطعنكم في الظهر. أنتم كنتم تخطّطون لعمل كهذا بحيث تتخلّصون منّي وتتحوّل أنت شخصيّاً إلى زعيم مطلق. إلى شبه إله. لقد تعاملتُ معكم كأنّكم أولادي، باعتباركم وطنيّين تريدون أن تنقذوا الأمّة المصريّة من الفساد والفوضى ثمّ تعيدوها إلى الحكم المدنيّ. وأعترف بأنّني أخطأت كثيراً بأن تواطأت مع عدد من سياساتكم القمعيّة ومن تجاوزاتكم على الأحزاب والحياة السياسيّة، ولاسيّما الموافقة على إلغاء دستور 1923. لقد أقنعتموني بأنّ تلك مجرّد إجراءات مؤقّتة لا بدّ منها لتقوية قبضة الثورة كيما تتمكّن من إنجاز أهدافها في تنظيف الحياة السياسيّة قبل أن ننسحب إلى ثكناتنا. لكنْ لا. فقد تبيّن لي أنّ هدفكم ليس إلا إقامة ديكتاتوريّة عسكريّة لا بدّ أن تكون أسوأ من الحكم الملكيّ".

"هذا ليس صحيحاً"، قال عبد الناصر بصوت منخفض وعلى شيء من التلعثم، "فنحن طموحنا الفعليّ كان إقامة حكم لمصلحة الشعب، ولأنّنا أبناء الشعب فإنّنا نمثّل إرادة الشعب...". هنا قهقه نجيب بصوت مرتفع: "الشعب... الشعب... لقد ضمّ تنظيمكم، تنظيم "الضبّاط الأحرار"، 329 ضابطاً، شارك منهم في الانقلاب 80 ضابطاً لأنّ الباقين، كما نعلم جميعاً، كانوا يخدمون خارج القاهرة. هؤلاء الثمانون لا يشكّلون أكثر

من 3 في المئة من ضبّاط جيشنا. لو شاركوا كلّهم لكانوا أقلّ من 13 في المئة من الضبّاط. فوق هذا، ليس بينهم صاحب رتبة عليا، ولم يكن بينهم قبطيّ واحد. فأنتم إذاً لم تكونوا تمثّلون الجيش، فكيف تدّعون أنّكم تمثّلون الشعب ومصالحه وإرادته؟ كفّوا عن هذا الكلام السخيف يا جمال. الشعب يعلن إرادته ويحدّد مصلحته عبر انتخابات ديموقراطيّة نزيهة، وأنتم لا تريدون ذلك لأنّكم تخافون من نتيجتها وتعلمون أنّها تقضي على مشروعكم الديكتاتوريّ. هذا البلد – الذي تقولون إنّكم تحبّونه وتريدون إنقاذه – ليس ابن البارحة يا جمال. فيه تقاليد حزبيّة وصحافيّة ونقابيّة عريقة. فيه سلطة للقضاء وحرّيات بحث جامعيّ. فيه سينما ومدارس رسم وموسيقى وغناء. عليكم أن تدمّروا كلّ هذا لكي تحكموه".

وإذ مضى عبد الناصر مُطرقاً يحدّق في أرض الغرفة، حاول أنور السادات أن يناوش: "يا سيادة اللواء، هذه إرادة الله. هذا هو القدر... نحن مثّلناه... نحن...". لكنّ نجيب قاطعه متأفّفاً ومحرّكاً يده بشيء من القرف: "ألم تكبر بعد يا أنور؟! ألم تتخلّص من هذه اللغة الخطابيّة العبيطة؟ ألم تقرأ مقالة صديقك إحسان عبد القدّوس، الذي أودعتموه السجن بسببها، عن أنّكم "جماعة سرّيّة تحكم مصر؟". أنتم هكذا مجرّد "جماعة سرّيّة" متآمرة، لا علاقة لكم لا بالله ولا بالقدر. كفّ عن هذا الهراء. إكبر يا أنور. إكبر".

في هذه اللحظة العصيبة أغمي على جمال سالم الذي تردّد أنّ حالته الصحيّة لا تحتمل لحظات التوتّر، فطلب نجيب من أحد مرافقيه نقله بسرعة إلى المستشفى. ومستفيداً من ذاك الاضطراب العابر في الجلسة تدخّل عبد الحكيم عامر: "سيادة اللواء، بغضّ النظر عن الخلاف بيننا، فإنّ الثورة تجمعنا، ولا ينبغي لسيادتكم معاملتنا بقسوة وعنف. نحن أبناؤك يا سيادة اللواء، والأب يغفر لأبنائه. ما فعلناه صدر عن حسن نيّة وعن وطنيّة صادقة. وإذا كنّا قد أخطأنا التقدير، فنحن مستعدّون للتكفير عن خطئنا بالعمل معكم وخدمة نظامكم الجديد...".

"اسمع يا عبد الحكيم: كان واحداً من أخطائي أنّني أيضاً سايرت جمال بالموافقة على تعيينك قائداً عامّاً للقوّات المسلّحة، مع أنّني أعرف، وأنت تعرف، وجميعاً هنا نعرف، كم أنّ كفاءاتك محدودة. شيء كهذا لن يكون ممكناً بعد عودة الحياة الحزبيّة والسياسيّة إذ لا تعود سلطة البتّ والقرار بيدي أنا، ولا بيد أيّ شخص كان. في هذه الغضون، أنا لن أسجنكم ولن أعدمكم. هذا ما لا أستطيع فعله. بيني وبينكم خبز وملح كثير. إنّني أعرفكم فرداً فرداً، وذات مرّة كنت أنظر إليكم كأبناء. ما سأفعله في هذه المدة الانتقاليّة، وقبل أن أعود إلى بيتي وأسلّم الحكم للمدنيّين، هو أن أعيّنكم ملحقين عسكريّين في سفاراتنا بالخارج. هكذا نطوي هذه الصفحة ونتفرّغ لأمور أجدى وأهمّ تطلبها منّا مصر".

ورفع نجيب يده مودّعاً "أبناءه" السابقين، لكنّه ما إن أدار ظهره وهو يقول لهم: "والآن السلام عليكم"، حتّى استدار ثانيةً وخاطب عبد الناصر بشيء من التودّد والممازحة: "أنت يا جمال سأعيّنك في روما، حيث عاش الرجل الذي يثير إعجابك، موسوليني. لكنْ بالله عليك، اقرأ قبل التوجّه إلى إيطاليا شيئاً عن النظام الذي أقامه، خصوصاً عن النهاية التي خُتمت بها حياته. لا أريد لك نهاية بشعة كهذه يا جمال".

بانصراف نجيب إلى مكتبه، بدأ العمل الجدّيّ. تلاحقت المواقف التي وُصفت بـ"التمهيد الضروريّ" لعودة الحياة السياسيّة: أعلن حلّ "هيئة التحرير". أطلق سراح المساجين السياسيّين جميعهم. اعتقل كبار نقابيّي النقل العامّ الذين ثبت أنّهم تلقّوا رشاوى من عبد الناصر كي ينظّموا مظاهرات ضدّ الحرّيّة والديموقراطيّة. ألغى قرار حلّ الأحزاب وقرّر في أقرب فرصة أن يزور قائد الوفد مصطفى النحّاس ويعتذر منه عمّا صدر بحقّه وحقّ حزبه. دعا إلى إعادة الانتخابات في الجامعات التي سبق أن زوّرتها سلطة "الضبّاط الأحرار". طالب الصحف التي أوقفت عن الصدور بمعاودة الصدور. عيّن الضبّاط الانقلابيّين ملحقين عسكريّين وأمر بسفرهم الفوريّ.

من جهة أخرى، فإنّ المرحلة الانتقاليّة التي ذُكر أنّها ستدوم ستّة أشهر، لمع فيها، إلى جانب نجيب، اسمان: محمّد حسنين هيكل ومحمود فوزي. أمّا الأوّل، ففاجأ

نجيب بنشره مقالة يدافع فيها عن إبعاد "الضبّاط الأحرار" الذين نسب إليهم "النيّة لإقامة ديكتاتوريّة عسكريّة ولإبقاء النظام الملكيّ من دون ملك". لقد بدا هيكل في مقالته كأنّه يحرّض على الاقتصاص منهم، وهذا ما جعل نجيب يستغرب جدّاً ما يقرأه ويفرك عينيه مرّات عدّة قبل أن يُنهي المقالة: "أليس هو إيّاه صحافيّ **الأهرام** الذي كان يعلّم جمال ويكتب له تلك الوريقات السخيفة التي نُشرت بعنوان "فلسفة الثورة"؟".

لكنْ حين قيل له أنّه هو الشخص عينه، سُمع يخاطب مساعده الضابط كمال أشرف: "هذا رجل يستحيل الوثوق به، لكنْ ربّما كان مفيداً أن نستخدمه في هذه المرحلة الانتقاليّة لترويج فكرة العودة إلى الحياة السياسيّة. اتّصلوا به واحرصوا على إخباره أسبوعيّاً بما يجب أن يكتبه وما لا يجب. إنّه يفعل كلّ ما تأمره به السلطة، فوجّهوه بما فيه مصلحة البلد وعودة الديموقراطيّة". وإذ رسم نجيب بسمة ساخرة وخبيثة على شفتيه أضاف: "اطلبوا من هيكل أن يكتب كرّاساً يردّ فيه على كرّاس "فلسفة الثورة". أنا متأكّد من أنّه يفعل ذلك بنفس الحماسة التي كتب بها كُتيّب عبد الناصر".

محمود فوزي كان له شأن آخر. فقد سمّاه نجيب رئيساً لحكومة المرحلة الانتقاليّة. ويقول مقرّبون من الإثنين إنّ اللواء أرفق طلبه بالتعليل التالي: "لقد

اخترتك يا دكتور فوزي لسببين، أوّلهما أنّك لست سياسيّاً لأنّني لا أريد الإيحاء بأنّنا نتدخّل في الأمور السياسيّة. إنّ كلّ ما سنفعله هو تهيئة الأوضاع لعودة السياسيّين بعد إجراء انتخابات عامّة. أمّا السبب الثاني، فهو خبرتك الديبلوماسيّة لأنّ مصر لا تستطيع، في ظلّ هذه الحرب الباردة المستعرة عالميّاً، أن تبقى بلا لسان ولا حضور طوال الأشهر الستّة للمرحلة الانتقاليّة. كلّ يوم يجدّ حدث كبير وعلينا أن نملك الاستجابة اللازمة. إنّ ما ستفعله حكومتك هو أقرب إلى إعلان مبادئ أفترض أنّ أيّ حكومة منتخبة ستلتزمها، علماً أنّها ستكون بالطبع حرّة في أن لا تلتزمها.

أوّل هذه المبادئ أنّ مصالح مصر هي العنصر المقرّر، وأنت تعلم أنّ مصالحنا الاقتصاديّة والاستراتيجيّة هي مع الدول الغربيّة. ولسوف نتوصّل إلى صيغة مع البريطانيّين للجلاء تكون أفضل كثيراً لنا من التي كان عبد الناصر يفاوضهم بشأنها من وراء ظهري. هذا لا يعني أنّنا سنقاتل النفوذ السوفياتيّ لأنّ هذا ليس شأننا، وأظنّ أنّ واشنطن لن تضغط علينا بهذا الاتّجاه حين تلاحظ أنّنا نبني ديموقراطيّة جدّيّة. كذلك لا أريد لعلاقاتنا الوثيقة مع البلدان الغربيّة أن تؤثّر سلباً في حرّيّة التنظيمات الشيوعيّة المصريّة في العمل السياسيّ، بشرط واحد هو أن تعلن تخلّيها التامّ عن العنف وانخراطها الكلّيّ في الحياة السياسيّة.

أمّا المبدأ الثاني، فهو أن نتوصّل مع الولايات المتّحدة وبريطانيا إلى تسوية سلميّة للنزاع مع إسرائيل. وأظنّ أنّ إعادة الاعتبار لصيغة التقسيم في 1947 ممكنة جدّاً، خصوصاً أنّ الاتّحاد السوفياتيّ لن يعارض ذلك. ألم تكن موسكو أشدّ العواصم حماسةً لقرار التقسيم؟

يبقى المبدأ الثالث، وهو أنّ مصلحة مصر تقتضي تعزيز الاتّجاه نحو الديموقراطيّة في المنطقة، في السودان جنوباً كما في سوريّا والعراق شمالاً وشرقاً. السيّد عبد الناصر كان معجباً بمعتوه سوريّا أديب الشيشكلي الذي قصف شعبه بالطيران. كان ينوي تقليده هنا في مصر. نحن سنتحرّك بالعكس تماماً: سنشجّع اللبنانيّين على تطوير نموذجهم البرلمانيّ وتعدّديّتهم الطائفيّة، فهذا مكسب للمنطقة عموماً. كذلك سنحاول إقناع الأنظمة المَلكيّة في طرابلس وعمّان وبغداد والرياض بالتحوّل التدريجيّ إلى ملكيّات دستوريّة، وأعتقد أنّهم فهموا الدرس المصريّ أو أنّهم مستعدّون للحوار حول هذه المسألة".

ويبدو أنّ فوزي موافق بالكامل على ما سمعه من نجيب. لقد صرّح لدى انفضاض اللقاء، والسعادة طافحة على وجهه، أنّ "مصر ومنطقة الشرق الأوسط مرشّحتان لدخول مرحلة من الاستقرار والازدهار غير مسبوقة منذ قرون".

انهيار انقلاب 14 تمّوز 1958 في العراق ونتائجه

بدأ يتوافد إلى قصر الرحاب كبار الساسة العراقيّين: نوري السعيد وجميل المدفعي وتوفيق السويدي وطه الهاشمي وعلي جودت الأيّوبي وفاضل الجمالي وكامل الجادرجي ومحمّد حديد، فضلاً عن رئيس الحكومة أحمد مختار بابان.

في السابعة والنصف صباح يوم الخامس عشر من تمّوز/ يوليو 1958، استقبلهم الملك فيصل الثاني والوصيّ الأمير عبد الإله. الجميع، المستقبِلون والمستقبَلون، بدوا منهكين كأنّهم لم يذوقوا النوم في الليلة الفائتة، فيما كان الحرّ الشديد يضاعف شعورهم بالإنهاك. ومن دون مقدّمات بدأ السعيد، أهمّ أولئك السياسيّين، الحديث:

"نبارك لكم يا جلالة الملك ويا سموّ الأمير، بل نبارك للشعب العراقيّ بأسره، النجاة من المحاولة الانقلابيّة الجبانة يوم أمس. لقد تمكّن ضبّاط جيشنا مدعومين بشعبنا الطيّب من إحباط ما أرادته زمرة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. إنّه يوم تاريخيّ مشهود للعراق".

وإذ بقي الملك صامتاً، هو الذي جعله صغر سنّه (23 سنة) أقرب إلى الخجل والاقتصاد في الكلام أمام سياسيّين مجرّبين وأكبر سنّاً، تدخّل الوصيّ: "نشكر لكم عواطفكم يا نوري باشا، كما نشكر تشريفكم جميعاً

وتضامنكم معنا ومع شعب العراق في وجه المؤامرة السوداء. لقد سحقنا زمرة قاسم وعارف، وسوف نعلّق لهم المشانق في ساحات بغداد. هذه المؤامرة هي لحظة تلاقٍ بين الشيوعيّة المخرّبة الملحدة والميل العسكريّ الديكتاتوريّ لعبد الناصر. هذا ما لا مكان له في عراقنا المؤمن الحبيب، وبين مواطنينا المتمسّكين بوطنيّتهم العراقيّة. لقد تلقّينا برقيّات تهنئة عاجلة من قريبنا الملك حسين، ومن الرئيس اللبنانيّ شمعون الذي يحاول عبد الناصر والشيوعيّون إطاحته، ومن الرئيس التونسيّ بورقيبة. كذلك اتّصل بنا الرئيس أيزنهاور من واشنطن ورئيس الحكومة ماكميلان من لندن مهنّئين".

وما إن توقّف عبد الإله للحظة، كمن يستريح قليلاً ليستأنف لاحقاً، حتّى تدخّل كامل الجادرجي، فيما اتّجه نوري إلى الحمّام:

"يا سموّ الأمير، نحن كلّنا نهنّئكم ونهنّئ أنفسنا، رغم الدم الذي تسبّبت به تلك المحنة، والذي نأسف له أشدّ الأسف. لقد نجا العراق بالفعل من حكم عسكريّ ديكتاتوريّ لا يتمنّاه المرء لبلده ولا لأيّ بلد. لكنّها ينبغي أن تكون فرصة نتأمّل فيها أخطاءنا التي لا بدّ أنّ الزمرة الانقلابيّة استخدمتها كي تؤلّب حولها من ألّبتهم من عسكريّين...".

"أخطاء؟ إنّها مؤامرة شيوعيّة-ناصريّة يا كامل بك..."، قالها نوري السعيد وهو عائد من الحمّام. ومع

أنّه لم يسمع إلّا الكلمات الأخيرة للجادرجي، علا صوته محتجّاً.

هنا تدخّل الملك الشابّ ليعلن بشيء من التردّد، فيما كان توفيق السويدي يهزّ رأسه موافقاً: "فلنستمع إلى ما يقصده كامل بك".

"ما لا شكّ فيه"، أكمل الجادرجي، "أنّ ثمّة مؤامرة تستهدف العراق وتنوي أن تطيح مساعينا لتطوير حياتنا السياسيّة وصولاً إلى نظام ديموقراطيّ سليم. لكنّ ضعف التركيبة العراقيّة سبّب هذه الهشاشة التي استثمرها الانقلابيّون. وسأبدأ من نقطتين أثارهما سموّ الوصيّ: تعليق المشانق ودور الناصريّة والشيوعيّة. أنا أقترح إجراء محاكمات للضبّاط الانقلابيّين، وتحويلها إلى مناسبة نعلّم فيها الشعب معنى الديموقراطيّة. لا بدّ من محاكمتهم وإصدار الأحكام التي يستحقّونها، لكنّ المشانق لا تفيد بشيء، وتجعلنا نبدو سفّاحين في مواجهة متآمرين. أمّا لغة الحرب الباردة عن المؤامرة الشيوعيّة، فأيضاً لا تفيد. إنّها تخدعنا إذ تقنعنا بأنّنا مجرّد ضحايا ولم نرتكب أيّ خطأ. فوق هذا، لم يعد أحد يصدّق هذه اللغة. كلّ من يعرف عبد السلام عارف، الذي لا يتوقّف عن الصلاة، يدرك أنّ وصفه بالشيوعيّة كلام يثير الضحك...".

واستعاد عبد الإله الكلام بدرجة أكبر من الحدّة: "كامل بك... أعرف أنّك أنت ومحمّد بك حديد متأثّران بالأفكار الاشتراكيّة البريطانيّة، ولهذا تميلان إلى نقد

العائلة المالكة. لكنْ ما الذي فعلناه نحن؟ لقد أساء لنا الأشخاص الذين أكرمناهم أو رقّيناهم في الجيش. هذا ما نعرفه من تجاربنا السابقة: سلّمنا ساطع الحصري التربية والتعليم في هذا البلد وجعلناه، مع أنّه حلبيّ، أستاذاً أعلى للعراقيّين جميعاً. أين هو الحصري الآن؟ في دمشق، يدعم عبد الناصر ويحرّض علينا. وعيّنّا رشيد عالي الكيلاني رئيساً للحكومة، ماذا فعل؟ تآمر مع أربعة ضبّاط لتنفيذ انقلاب يطيح الملكيّة، كما تعاون مع الألمان واتّهمنا بالعمالة للإنكليز. ولا أزال أذكر، ولا شكّ أنّ نوري باشا أيضاً يذكر، كيف هربنا في تلك الليلة من بغداد لأنّ الإنقلابيّين كانوا ينوون تصفيتنا...".

هنا وقف نوري واتّجه مجدّداً إلى الحمّام فيما كان محمّد حديد، وعلى نحو غير مألوف، يقاطع الوصيّ: "يا سموّ الأمير، لا تُحسَب الأمور السياسيّة على هذا النحو. أنا أختلف كلّ الاختلاف مع الكيلاني والحصري، وأظنّ أنّ فاضل بك الجمالي الذي خاض معاركه الشهيرة مع الحصري حول برامج التعليم يشاركني الرأي. لكنّ المناصب والمسؤوليّات ليست مَكرُمات وعطايا". في هذه اللحظة بدت على وجه الوصيّ إمارات غضب مكتوم فجحظت عيناه وبدأ جسمه ينبض بحركات لم يقوَ دائماً على ضبطها. ويظهر أنّ ما أزعجه لم يكن كلام حديد فحسب، بل نظرة الملك إليه وهو يتحدّث، إذ بدا منصتاً بعناية إلى أقواله. هكذا وجد محمّد حديد ما يشجّعه فمضى موجّهاً كلامه إلى الملك:

"هناك مسألتان أساسيّتان يا جلالة الملك يتعلّق بهما مستقبل العراق ومستقبل حكمكم نفسه: فجلالتكم، كشابّ عصريّ، لا بدّ أنّكم تتابعون ما يجري في العالم وتغيّراته. ذاك أنّ المَلكيّة المطلقة تتحوّل إلى ماضٍ. لقد بدأت بريطانيا، التي نتأثّر بتجربتها وثقافتها السياسيّتين، رحلتها الطويلة إلى المَلَكيّة الدستوريّة عام 1688، مع "الثورة المجيدة" التي أنتجت "مرسوم الحقوق" الذي بات شهيراً في التاريخ السياسيّ والدستوريّ للعالم. فإذا أردنا تعزيز الديموقراطيّة وامتصاص تناقضات المجتمع ونقلها إلى البرلمان، كان لا بدّ من الإقدام، ولو تدريجيّاً، على خطوة كهذه. إنّ مُلكيّتكم مصانة، وهي من الإجماعات القليلة بين العراقيّين الذين يلتقي سنّتهم وشيعتهم على تكريم آل البيت. لكنّ ذلك لا يلغي ضرورات التغيير". هنا قرّر نوري، العائد من الحمّام، أن يتدخّل، فقال بشيء من السخرية: "جلالة الملك يشكرك على عواطفك الكريمة"، الأمر الذي لم يعلّق عليه الملك الذي استمرّ في إنصاته، فيما كان غضب عبد الإله يتعاظم. وأكمل السعيد بالسخرية نفسها: "وما هي المسألة الثانية يا محمّد بك؟".

لكنّ الملك، رغم تهذيبه الجمّ، لم يستطع إلّا أن يسأل السعيد بشيء من التوتّر: "ما قصّتك يا نوري باشا مع بيت الخلاء كلّما احتدم النقاش؟". وبدوره، ردّ السعيد معتذراً أنّ أمعاءه لم تتحمّل المآكل الدسمة التي تعشّاها

في الليلة الفائتة. لكنّه أضاف ضاحكاً: "وبسبب وضعي المعويّ الذي منعني من النوم كنتُ أوّل من اكتشف الانقلاب".

الملك لم يضحك، بل سأل محمّد حديد أن يعرض المشكلة الثانية التي أشار إليها.

"نعم، هناك مسألة ثانية أتمنّى أن يوليها نوري باشا ما تستحقّه من أهميّة، لأنّ من غير اللائق في من يتولّون السلطة ألّا يكونوا على دراية بها. إنّها الإصلاحات الزراعيّة. فالعراق، في وسطه وجنوبه، يعاني أحد أكبر الاختلالات في العالم بين الملكيّات الزراعيّة الهائلة المساحة لملّاكين متغيّبين يعيشون في المدن وأعداد من الجائعين الذين يفتقرون إلى كلّ ملكيّة، وبالتالي إلى أبسط شروط الحياة الكريمة. تمليك هؤلاء ومساعدتهم على استثمار أرضهم هو وحده ما يخلق طبقة متوسّطة ومتعلّمة في الأرياف تدعم الاستقرار وتنشر وعياً وطنيّاً يتعالى على الانتماءات المذهبيّة الضيّقة والولاءات العشائريّة، كما يقطع الطريق على الأحزاب المتطرّفة والشيوعيّة التي تستقطب شبّان تلك المناطق. والتمليك هذا إنّما يؤدّي إلى رفع الإنتاجيّة وزيادة حصّة الزراعة في الاقتصاد الوطنيّ".

وإذ أغلق نوري عينيه متظاهراً بالنوم، هزّه فاضل الجمالي من يده: "اسمع يا باشا هذا الكلام. اسمعه. أنا من هناك وأعرف كيف يعيش الناس في الوسط والجنوب. إنّهم، فوق هذا، يعلمون أنّكم، أهل الذوات

في بغداد، لا تزورون مناطقهم التي لولا ثورتها في 1920، لما كان هناك عراق. ولا أخفيكم، وبالنظر إلى الاختلاف المذهبيّ، أنّ هذه المسألة تتّخذ بُعداً مذهبيّاً خالصاً. وما دمتم ذكرتم الحصري، فأنتم تعرفون أنّ النظام التعليميّ الذي وضعه للعراق يفاقم هذه الحساسيّات. لقد خضتُ ضدّه معركة لم تؤازروني فيها لأنّه يفرض على التلاميذ الشيعة الروايةَ السنّيّة للتاريخ، ويتعامل مع روايتهم هم كأنّها خرافة لا تستحقّ الذكر...".

وسط هذه المعمعة ضمّ أحمد مختار بابان صوته إلى صوت الجمالي: "وهناك أيضاً مسألة الأكراد. الاستثمارات الحكوميّة هزيلة جدّاً في الشمال. كلّ ما يعني الأعيانَ في بغداد والموصل هو بناء قصور وفيلّات في أربيل والسليمانيّة ودهوك للاصطياف فيها. اللغة والثقافة الكرديّتان شبه محرّمتين. ولا أخفي عنكم أنّ هذا التوجّه يخدم دعاة الانفصال الذين يتكاثرون في أوساط العشيرة البارزانيّة الكبيرة. وأودّ أن أذكّركم يا سادتي بأنّ الأكراد ضُمّوا بالقوّة إلى العراق، وحين ثار قائدهم الشيخ محمود الحفيد ضربته الطائرات البريطانيّة وأجبرت الأكراد على الإذعان للدولة العراقيّة. لقد آن الأوان، بعد قرابة أربعة عقود، أن نخلق عاطفة كرديّة حيال العراق، وهذا شرطه أن تنشأ عاطفة عراقيّة حيال الأكراد. فهذا البلد عرف مذبحة

الأشوريّين في 1933 وفرهود اليهود في 1941. هذا أكثر من كافٍ".

وفجأة سُمع نوري يهدر ويزمجر، تُصاحب كلامَه نظرة تأييد من عبد الإله متخمة بالغضب على الآخرين: "غريب ما أسمعه. هناك مؤامرة علينا وعلى العراق، وأنتم تتحدّثون عن اليهود والآشوريّين وعن الإصلاحات الزراعيّة كأنّكم شيوعيّون، وعن الشيعة والأكراد كأنّكم تنوون تجزئة هذا الوطن. أنا، بصراحة، لا أستسيغ كلاماً كهذا. أنا قوميّ عربيّ قاتلت مع المغفور له جلالة فيصل الأوّل في سبيل الدولة العربيّة الواحدة...". لكنّ الجادرجي قهقه بصوت مرتفع: "نوري باشا، لقد قلنا إصلاحات زراعيّة فاتّهمتّنا بالشيوعيّة. ما رأيك لو اتّهمناك بالناصريّة لأنّك، كما تقول، قوميّ عربيّ. ثمّ إنّك، يا باشا، لم تقاتل إلى جانب المغفور له فيصل الأوّل فحسب. لقد قاتلتَ في الجيش العثمانيّ، ثمّ بقيادة الإنكليزيّ لورنس، إلى جانب غلوب باشا... فرجاءً أن نبتعد عن ديماغوجيا عبد الناصر، فنحن الآن لا نلقي خطابات للجماهير".

هنا دخل عدد من النادلين وهم يحملون صحون الكنافة التي يستوردها القصر الملكيّ العراقي يوميّاً من بيروت على أن يؤتى بها من "حلويات الحلّاب" في طرابلس. الكلّ كانوا يتضوّرون جوعاً، لكنّ سرعة التهام عبد الإله وتوتّره أحدثا غصّة سدّت حلقومه تماماً. اصفرّ وجه الوصيّ وجحظت عيناه وهوى عن كرسيّه أرضاً،

فيما الآخرون لا يعرفون ماذا يفعلون. الملك لم يبدر عليه أيّ قلق حيال خاله والوصيّ عليه. وحده نوري طالب بإحضار طبيب وهرع إلى الحمّام، لكنّ عبد الإله كان قد فارق الدنيا وهمد هموداً أبديّاً.

معظم الحاضرين راحوا يتبادلون نظرات تنطوي على شيء من الارتياح، بينما بدا نوري، العائد من الحمّام، وحيداً مكسوراً يتمتم لعنات للكنافة ولأهل مدينة طرابلس. وقد فُهم لاحقاً أنّه، هو نفسه، سبق أن تناول كميّة هائلة من الكنافة إيّاها في عشائه ذاك، بعد كميّة رهيبة من سمك المسقوف وأنواع من المَرَق.

في اليوم التالي، صدرت صحيفة **العالم** المعارضة، التي كانت السلطة كثيراً ما تعطّلها، بمانشيت جريء يقول: "العراق والديموقراطيّة انتصرا مرّتين: بهزيمة المحاولة الانقلابيّة وبرحيل الوصيّ".

لماذا أيَد الحاج أمين والدول العربيّة تقسيم فلسطين؟

تسرَبت إلى أروقة الصحافة في مصر معلومات تفيد أنَ الزعيم الفلسطينيَ الحاج أمين الحسيني دخل البلد بجواز سفر مزوّر يحمل اسم معروف الدواليبي، الشابّ الإسلاميّ السوريّ المقرّب من المفتي، وأنّ القصر الملكيّ رتّب للمفتي منزلاً في القاهرة، بعيداً عن الأنظار، حمايةً له من المطالبة الدوليّة باحتجازه.

لكنْ حين صدر قرار تقسيم فلسطين في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1947، ولم يكن قد مضى غير أشهر على دخول الحسيني إلى مصر، طلبت أسرة **الأهرام** من أحد محرّريها التوجّه إلى منزله لإجراء مقابلة معه. وإذ تساءل المحرّر عن إمكانيّة اختراق السرّيّة التي يعيش فيها، فضلاً عن تشدّد الحكومة المصريّة في الحرص على هذه السرّيّة، أجابه رئيس التحرير أنطون الجميّل أنّ "الحسيني نفسه يريد أن يتحدّث، ويبدو أنّ الحكومة المصريّة لا تمانع. فهي تملك ضمانات بأنّ ما سيقوله سيكون مفيداً لها وله في الوقت نفسه".

وبالفعل، أجريت المقابلة التي استهلّها الصحافيّ الشابّ بسؤال عن الوضع الأمنيّ للمفتي.

– لقد وفّرت الحكومة المصريّة لي مشكورةً حمايتها ورعايتها وضماناتها. وأنا تعهّدت لها، مقابل سخائها ولطفها، أن ألتزم الصمت ولا أعطي لأعدائها ولأعدائي

فرصة الاقتصاص منّا. لكنّني قررت أخيراً أن أمارس نقداً ذاتيّاً صريحاً ومعلناً لسياساتي في السنوات الماضية، وحين أطلعت حكومتكم على رغبتي هذه وافقتني الرأي وقالت لي إنّ نقدي الذاتيّ انطلاقاً من القاهرة سيفيدها أكثر ممّا يؤذيها، وهي على استعداد لتحمّل أيّ تبعة تترتّب على ذلك.

* لكن ما هو النقد الذاتيّ الذي ستدلي به سماحتكم؟.

– أنا يا بُنيّ فعلت ما لا يُفعَل. لقد تواطأت مع النازيّين حتّى إنّني ذهبت إلى البوسنة كي أقنع مسلميها بالقتال إلى جانبهم. الإنكليز ظلمونا، واليهود ظلمونا، لكنّ كرهي لهم صار أعمى. صرت مستعدّاً أن أجالس هتلر وبعض قادته وأستمع إليهم وهم يداعبونني بالقول إنّني آريّ لأنّ عينيّ زرقاوان. أنا وصديقي السابق رشيد عالي الكيلاني وصل بنا الأمر إلى حدّ التفكير بأنّ هؤلاء النازيّين سيحرّروننا فيما نظامهم قائم على استعباد البشر واعتبارهم أعراقاً أدنى. ومع أنّ هذا يعاكس بالكامل تعاليم الإسلام، فقد غضضت النظر عن أفعالهم التي لا يمكن غضّ النظر عنها. واليوم، يكاد الشعور بالذنب يقتلني. طبعاً، أولئك الصهاينة الذين يتّهمونني بأنّ لي دوراً في محرقة اليهود يكذبون. وهل يمكن لفلسطينيّ وعربيّ ورجل دين مسلم أن يؤثّر في سياسات النازيّين الألمان؟! مع هذا، عرفت بأمر المحرقة وتصرّفت كأنّني لا أعرف. ستّة ملايين يا صديقي... أفران غاز... هل هذا معقول؟ الشعور بالذنب يحرمني

نوم الليل. يشلّني تماماً. أنا – هذا الرجل النحيل الذي يجلس أمامك – أخسر يوميّاً كيلوغراماً وأحياناً كيلوغرامين. فعلاً ما عدت أستطيع... فإلى جانب خطئي العميق دينيّاً وأخلاقيّاً، هناك الخطأ السياسيّ: فتلك المأساة هي التي تسبّبت بتعاظم الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين، وبإلحاح العالم على وجود دولة لليهود في بلادنا تكون تعويضاً عن مأساتهم وتكفيراً أوروبيّاً عن الذنب. كان ينبغي كي نحمي حقّنا أن يكون صوتنا أعلى في مناهضة هتلر. ما فعلناه، وما فعلته أنا شخصيّاً، كان للأسف معاكساً تماماً.

* أقدّر مشاعرك النبيلة يا سماحة المفتي، لكنْ ألا تظنّ أنّ موافقة الدول العربيّة على قرار التقسيم ستشكّل إساءة كبرى لقضيّة فلسطين العادلة والمُحقّة؟

– اسمعني جيّداً يا بُنيّ. قضيّتنا بالطبع قضيّة عادلة ومحقّة. نحن كنّا نملك بلداً هو بلدنا وفجأةً وجدنا أنفسنا نقتسمه مع يهود جاءت أكثريّتهم الساحقة من أوروبا الوسطى ومن روسيا. كان من الجائر أن يُطلب منّي التعويض ببلدنا عن تلك الجريمة الفظيعة التي نزلت باليهود والتي لا يد لنا فيها. لكنّ المطالبة بالحقّ، حقّنا، لا تكفي بذاتها. الدول العربيّة حديثة الولادة وحديثة الاستقلال. جيوشها لا يزال يدرّبها الأوروبيّون الذين وافقوا جميعاً على التقسيم. علاقاتها الاقتصاديّة والتعليميّة هي معهم. أبعد من هذا، هناك التوافق العالميّ حول قرار التقسيم: من موسكو إلى واشنطن.

إنّني أتفهّم تماماً امتناع الحكومات العربيّة عن الوقوف ضدَ الإجماع العالميّ الجديد. لو فعلوا غير هذا وعارضوا التقسيم لبدوا أوّل المعطّلين لسلام ما بعد الحرب العالميّة الثانية، وأوّل الراغبين في إضعاف منظّمة الأمم المتّحدة وجعلها أشبه بعصبة الأمم في سنواتها الأخيرة. هذه مسؤوليّة كبرى حيال العالم والسلم العالميّ يصعب تحميلها للدول العربيّة. ثمّ إنّ الشعوب العربيّة وقد استقلّت أخيراً، آن لها أن تعيش بشيء من الاستقرار وأن تحظى بتقدّم لم تعرفه منذ مئات السنين، وهذا لا يتحصّل إلّا بالانفتاح على العالم وعلى العصر الجديد لما بعد الحرب العالميّة الثانية.

* لكنْ إذا تفهّمنا أوضاع الدول العربيّة، فماذا عنكم أنتم الفلسطينيّون؟ لماذا توافقون على قرار التقسيم؟

– لقد فعلنا كل ما في وسعنا. عقدنا المؤتمرات التي حضرها أعيان وسياسيّون ومفكّرون من البلدان المسلمة وصولاً إلى الهند وإندونيسيا. جاءنا متطوّعون كالشيخ السوريّ عزّ الدين القسّام للقتال معنا واستشهدوا. غضبنا ودعونا إلى مهرجانات شعبيّة وألقينا خطباً في الجوامع حمّست المصلّين كما نظمنا القصائد. أكرم زعيتر ردّ على التحدّيات بما أسماه "قصيدة عصماء من 180 بيتاً" (يضحك بشيء من السخرية). هذا كلّه لم يُترجَم إلى لغة أجنبيّة ولم يحرّك ساكناً في العالم. الأهمّ أنّنا خضنا حرب 1936–39 ضدّ الإنكليز والصهاينة، لكنْ إلى ماذا انتهينا؟ إلى حرب ضروس بين

الفلسطينيّين والفلسطينيّين، بيننا وبين آل النشاشيبي وأتباعهم. بين فلّاحينا وفلّاحيهم. هذه الحرب دمّرت نسيج وحدتنا الوطنيّة، ونحن ذهبنا بها بعيداً بحيث اتُّهم قريبي الشاب والمجاهد عبد القادر باغتيال فخري بك النشاشيبي في بغداد. هذا أيضاً ما كان ينبغي له أن يحدث، لكنّ العصبيّات والحمولات والتسابق على النفوذ أعمى عيوننا وقلوبنا. فخري وراغب بك النشاشيبي كانا وطنيّين لا يقلّان عنّي وعن عبد القادر وطنيّةً وحبّاً لفلسطين، لكنّ نظرتهما إلى الأمور اختلفت. كان ينبغي أن تتّسع قلوبنا لاختلافاتنا. ولأنّ هذا لم يحدث، لم تنته المواجهة في 1939 إلّا وقد دُمّر مجتمعنا بالكامل وبتنا عاجزين وضعفاء جدّاً. فكيف نقاوم الإنكليز والتنظيمات الصهيونيّة الحديثة التدريب والتسليح؟

واليوم أفكّر كم كان مؤلماً عجزنا عن توحيد الحسينيّين والنشاشيبيّين فيما يتعايش ويتوافق يهود قدموا من بلدان ولغات وثقافات لا حصر لها!

ثمّ لنفترض أنّنا رفضنا خطّة التقسيم واخترنا القتال، ما الذي كان سيحدث؟ الهزيمة العسكريّة المؤكّدة كانت ستستجرّ تدخّلاً عربيّاً لن ينجح في تعديل توازنات القوى مع اليهود، لكنّه يؤدّي إلى تناهُش أجزاء من فلسطين بحيث لا تنشأ دولة فلسطينيّة كالتي ضمنها لنا التقسيم. إخواننا في مصر كانوا سيجدون أنفسهم مضطرّين إلى تحمّل المسؤوليّة عن قطاع غزّة. أمير الأردن الذي صار ملكاً قبل عام (يضحك بنفس

السخرية) سيمدّ يده إلى قسم من فلسطين لتوسيع مملكته الصغيرة. عبد الله لن يقبل أن يكون أخوه الأصغر، المغفور له فيصل الأوّل، قد نال مملكة العراق فيما أعطيت له إمارة شرق الأردن! في الوقت نفسه كانت الدولة اليهوديّة ستغدو أكبر ممّا حدّده لها قرار التقسيم لأنّها هي الأخرى كانت ستقضم جزءاً من الدولة الفلسطينيّة. هل نترك أمراً بمثل هذه الأهميّة لما يسمّيه البعض في دمشق "جيش الإنقاذ"؟ هل نتركه لرجل سخيف ومتقلّب كفوزي القاوقجي؟ دعك من هذه الألعاب ومن إضاعة الوقت. ينبغي للمرء، بشرف وكبرياء، لا بمكابرة، أن يعترف بهزيمته: نحن هُزمنا وضاعف هزيمتنا أنّنا تحالفنا مع النازيّة التي هُزمت كذلك. المكابرة لا تفيد يا عزيزي.

* لكنّ الأراضي التي أعطيت للعرب، وفق قرار التقسيم، أقلّ خصوبة من تلك التي أعطيت لليهود...

– أعرف ذلك. هذا أيضاً ناجم عن أنّنا هُزمنا. لكنّ هذا الأمر قابل للعلاج والحدّ من أضراره. يمكننا التوصّل مع قادة الدولة العبريّة إلى مشاريع تنمويّة مشتركة: هم يقدّمون الكفاءات الآتية من أوروبا والرساميل الغربيّة التي قد تصبّ في دولتهم، ونحن نقدّم اليد العاملة ونكون جسر التصدير إلى العالم العربيّ. لقد سمعت أنّ ديفيد بن غوريون في هذا الوارد، وأنّ أحد الشبّان المقرّبين منه، واسمه شمعون بيريز على ما أظنّ، متحمّس لذلك. القوميّون المتعصّبون من أتباع مناحيم

بيغن وإسحاق شامير قد يرفضون الأمر، لكنّ الأكثريّة هناك من الاشتراكيّين. وأعرف أنّ الشيوعيّين الفلسطينيّين المتحمّسين للتقسيم، والذين يضمّون يهوداً وعرباً، يعوّلون على مشاريع كهذه. هم قد تراودهم أوهام وأحلام يسمّونها "وحدة البروليتاريا" العربيّة اليهوديّة، لكنْ لا بأس. يمكننا توسيطهم بيننا وبين "حزب العمل الإسرائيليّ". سأتّصل بإميل توما أو إميل حبيبي (ويضيف مبتسماً بشيء من التخابث: كم يكثر الإميلات بين الشيوعيّين العرب!). لقد ساءت علاقتي بالشيوعيّين منذ اتّهموني بقتل النقابيّ سامي طه قبل أشهر قليلة. عليّ أن أصلحها بسرعة. لعن الله الاغتيالات كم أساءت إلى القضيّة. كان ينبغي تجنّبها من الأصل...

* لكنْ ألا يخيفكم أن تكون لدى هذه الدولة اليهوديّة مشاريع توسّعيّة في المنطقة؟

– اسمع يا عزيزي. عدد اليهود أصغر من أن يدفعهم إلى التوسّع وقضم أراضٍ أخرى. لا يوجد العدد الكافي لإسكانهم في الأراضي التي قد يتوسّعون فيها. وهناك ما هو أبعد من ذلك: انظر إلى هذه المنطقة ذات اللون الثقافيّ الإسلاميّ الطاغي. لو نجحت المحاولات الجارية الآن لإقامة أنظمة ديموقراطيّة تساوي بين المواطنين، كما تساوي بين الديانات، ألن ينعكس هذا على اليهود الذين يشعرون حينذاك بأنّ حياتهم وحقوقهم وحرّيّاتهم مضمونة؟ إنّ المفتاح هو بيدنا

نحن، أبناء الأكثريّة، كي نبدّد المخاوف والمحاذير ونُحدث استرخاءً يعمّ المنطقة بألوانها كافّة. ينبغي أن نملك بعض الثقة بنفسنا ونتصرّف على أساسها. إنّنا نتحدّث ليلاً ونهاراً عن أصالتنا لكنّنا نتصرّف بخوف من وُلد يوم أمس. هذا ما ينبغي أن يتغيّر.

* ثمّة من يقول إنّ دعاة الحرب الدينيّة من اليهود سيحولون دون احتمالات السلام والانفراج...

– الأكثريّة الكاسحة من الصهاينة علمانيّون. إنّهم يستعملون الدين لإغراء المؤمنين من اليهود، ولاسيّما الروس، بالقدوم إلى فلسطين. أصحاب التزمّت الدينيّ لن يتكاثروا، عندهم وعندنا، إلّا في ظلّ الحروب والتشنّج ممّا ينبغي أن نعمل معاً على تبديده. لكنّ هذا لا يلغي ضرورة التوقّف عن استخدام الذرائع الدينيّة من أجل أهداف دنيويّة، على ما فعل الصهاينة. هذا سيئ كائناً من كان الذين يطبّقونه. لقد بتّ أعتقد، وأنا كما تعلم مُفتٍ من عائلة مُفتين، بأنّ الدين هو ما ينبغي أن يتكيّف مع الحياة ويخدم تطوّرها وتقدّمها، لا أن تُطالَب الحياة نفسها بالتكيّف مع الدين. ولمعلوماتك، فأنا سأعكف على تأليف كتاب يراجع نقاطاً ثلاثاً في التأويل الرائج للإسلام لا أظنّ أنّها تخدم السلام مع غير المسلمين ولا تخدم تقدّمنا جميعاً: مسألة تمييز "أهل الكتاب"، وتعظيم "الفتح الإسلاميّ"، وهذا التداخل بين الدين والقوميّة. لا بدّ من إعادات نظر جذريّة، لا بدّ... هذا لمصلحتنا نحن قبل أن يكون لمصلحة أحد سوانا.

* ألا تخاف من المزايدات باسم فلسطين؟

– المزايدون حتّى الآن لا يخيفون. إنّهم في أكثرهم شبّان لا وزن لهم في بلدانهم، كحال القاوقجي في لبنان، ولسوف يسعون إلى جعل فلسطين سلّمهم إلى المجد. ما أخشاه أن يطيح بعض العسكريّين حكوماتهم ثمّ يستخدموا فلسطين كي يمضوا في قهر شعوبهم وتحويل أنظارها عن همومها الفعليّة. هذا احتمال قائم دائماً أتمنّى أن تطوّقه الحكومات العربيّة بمزيد من الديموقراطيّة ومزيد من المساواة.

هنا نظر المفتي إلى ساعته، ثمّ وقف واعتذر: لقد حان وقت الصلاة يا بنيّ.

حين زار حافظ الأسد إسرائيل وبقي هناك

ما إن اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف، صباح 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977، حتّى كان الرئيس المصريّ أنور السادات يعانق الرئيس السوريّ حافظ الأسد. بدا هذا اللقاء، على أرض دمشق، كأنّه يكسر الجفاء الذي ساد علاقة الرئيسين في السنتين الأخيرتين، وهما اللذان خاضا معاً حرب أكتوبر قبل أربع سنوات.

مع هذا، حاول الأسد، في البداية، أن يلتفّ على الموضوع: "خطابك في مجلس الشعب كان رائعاً يا أنور. فقولك إنّك مستعدّ لزيارة القدس، والكنيست نفسها، طلباً للسلام، مناورةٌ مدهشة في تاريخ الديبلوماسيّة. العبيط مناحيم بيغن وقع في الفخّ الذي نصبتَه له وقال إنّ إسرائيل توجّه لك الدعوة لزيارتها...".

كان الأسد يقول هذا الكلام بشيء من التردّد كأنّه يمثّل كلامه تمثيلاً، لكنّ السادات أوقف المَسرَحَة حين أجابه بكثير من الجدّ والحزم: "لا يا حافظ، أنا لم أكن أناور. أنا فعلاً متوجّه إلى القدس عبر دمشق التي مررتُ بها كي أصطحبك معي".

هنا علّق الأسد بلهجة مصريّة: "أنتَ بتهزّر يا نُوَر ولّا إيه؟". ولم يردّ الرئيس المصريّ مكتفياً بهزّ رأسه ومنتظراً أن يؤجّل الكلام التفصيليّ إلى ما بعد الوصول

إلى القصر الرئاسيّ. لكنّ السادات، طبقاً لما نقل صحافيّ مصريّ كان يرافقه، تحاشى أن يقول شيئاً يمكن أن يسمعه وزير الخارجيّة السوريّ عبد الحليم خدّام الذي كان يمشي في المطار وراء الرئيسين تماماً. فالرئيس المصريّ، على ذمّة ذاك الصحافيّ، كان يكره الوزير السوريّ ويحتقره لأسباب لم يفصح عنها من قبل.

على أيّ حال، ما إن اختلى الاثنان في إحدى غرف قصر المهاجرين حتّى دخل خدّام وشاركهما جلستهما. ومع أنّ الامتعاض بدا على وجه الرئيس المصريّ، فإنّه دخل مباشرة في الموضوع الذي جاء من أجله:

"أنا، يا حافظ، أنوي فعلاً التوجّه إلى إسرائيل لكي أستعيد أرض مصر...".

هنا قاطعه خدّام بصوت مرتفع اعتبره السادات طريقةً قليلة التهذيب في مخاطبة الرؤساء: "ماذا تقول يا سيادة الرئيس؟ تزور إسرائيل؟ هذا لا يُصدّق. هذه خيانة قوميّة لا تُغتفر...".

وبعينين جاحظتين نظر إليه السادات فيما كان يخبط بيده وبقوّة على الطاولة الصغيرة التي يجلس وراءها: "خيانة قوميّة؟ تتجرّأ على مخاطبتي بهذه الطريقة أنت الذي كنتَ محافظاً للقنيطرة عندما احتلّها الإسرائيليّون..."، ووقف السادات كأنّه ينوي التوجّه نحو خدّام وربّما توجيه لكمة له على الوجه، لكنّ حافظ اعترضه وهدّأه طالباً منه أن "يرتاح على كرسيّه"، ومشيراً بيده إلى خدّام أن يغادر القاعة.

وبالفعل غادر "أبو جمال"، تاركاً للرئيس السوريّ أن يرطّب الجلسة:

"عبد الحليم نواياه طيّبة، وأنت ظلمتَه يا أنور... أنا أيضاً كنتُ وزير دفاع حين خسرنا حرب 67، فهل تلومني على هذا؟ وأنت ألم تكن رئيساً لمجلس الأمّة؟".

"بتقول إيه يا حافظ! أنا ما كنتش حاجة. جمال عبد الناصر الله يرحمو كان كلّ حاجة، وهو اللي ودّانا في داهية. لو كنت أنا المسؤول ما كنّاش أصلاً فُتنا في الحرب وخسرنا اللي خسرناه. اليوم أنا بسعى أرجّع الأراضي اللي خسرناها بسبب جمال الله يرحمو...".

"لكنّ كرامتنا يا أنور...".

"كرامة! هُوّا الكرامة يعني تبقى أراضينا محتلّة؟ أنت تسمّي دي كرامة يا حافظ؟! قبل أربع سنين عملنا حرب أكتوبر وقلنا حنرُدّ الأرض بالقتال. لم نوفّق كما تعلم. لم نردّ الأرض. إذاً نردّها بالديبلوماسيّة".

"لكنّك، يا أنور، فرّطتَ بالقتال حين اتّجهتَ سريعاً إلى التفاوض وإلى أميركا وصديقك العزيز كيسنجر...".

"ما لك بتتكلّم زيّ صحيفة **السفير** في بيروت. هو ده ابن الكلب أرييل شارون عمل لنا الدفرسوار. كان يمكن ياخد القاهرة وياخد الإسكندريّة كمان. وكان حياخد الشام بالتأكيد. لو أنتَ هربت للاذقيّة كان أخد اللاذقيّة وطلع حلب...".

وبصوت مخنوق سأل الأسد: "والعروبة يا أنور. ماذا نفعل بالعروبة؟".

"إيه دي العروبة يا حافظ. كبّر عقلك شويّه. أنتو السوريَين مصابين بالعروبة إصابة فتّاكة يا أخي. أنا لمّا خشّيت سوريا أوّل مَرّا في 1957، بصفتي الأمين العامّ للمؤتمر الإسلاميّ العالميّ، التمّ الصحافيّين السوريّين عليّ وصاروا يسألوني عن رأيي في العروبة. ما كنتش فاكر العروبة دي إيه. قلت يومها: العروبة حتّة جميلة قوي. وبعدين، لمّا رجعت القاهرة لقيت جمال بيضحك ويقوللي إنّ جوابي كان موفّقاً جدّاً وأنّني لا بدّ كنت أفكّر بالتّوْرْتَة وأنا أجيب. أنا لا أفهم أن نخسر أراضينا من أجل حتّة عروبة!".

"طَبّ بلاش العروبة يا أنور. فلسطين، ماذا عن فلسطين؟".

"وما لها فلسطين. ناخد معانا ياسر. ياسر عرفات. هو ناطر في بيروت وقَلّي بصريح العبارة: إذا حافظ يمشي تلّ أبيب أنا أمشي. نفس الشيء قالو الملك حسين. همّا خايفين منّك يا حافظ: أعمال اغتيال وخطف وتفخيخ سيّارات وكده يعني. دي الحاجات اللي يتولّاها الولد الصايع دا أبو جمال".

هنا انفرجت أسارير حافظ عن ضحكة أرفقها بالقول: "لا ليس أبو جمال. هذا مشروع كبير يشتغل فيه رفعت ومحمّد ناصيف وعلي دوبا وعلي أصلان وغيرهم من الشباب، حين يشعرون أنّ الضرورات القوميّة تقتضي ذلك".

"سيبك من الكلام الفارغ ده عن الضرورات القوميّة وامشِ نخشّ تلّ أبيب يداً بيد. ناخد حسين وياسر ونفاوض من موقع قوّة للجميع".

وإذ دخل النادل حاملاً بعض العصائر للرئيسين، قال الأسد مداعباً السادات ومتأرجحاً بين الجدّ والمزاح: "لكنْ إذا ذهبتُ معكم فأرجوك أن تجلس في الطائرة بيني وبين ياسر. أنا لا أطيق الجلوس قريباً منه".

"وماذا أفعل؟ الملك حسين قال لي إنّه يريدني أن أجلس بينه وبينك في الطائرة، فكيف أوزّع نفسي يا حافظ؟ الحلّ الأفضل أن نذهب في طائرتين في وقت متقارب: أنا وأنت نتوجّه من دمشق، وياسر وحسين يسافران من عمّان؟". وبعد قهقهة عابرة أضاف: "يا أخي، نحن ذاهبون لنحلّها مع اليهود، فكيف لا نحلّها في ما بيننا؟".

هنا صفن حافظ صفنة طويلة: "نحلّها؟ وماذا أفعل بصدّام".

"ناخدو ويّانا كمان".

"هُوّا ما عندوش أراضي محتلّة بس يتاجر بأراضينا المحتلّة".

"خلاص بقى دلع... مجنون العراق مش عايز، ومجنون ليبيا مش عايز..."، فقاطعه الأسد:

"لكنّهم يبتزّوننا بالجماهير العربيّة...".

"همّا الجماهير العربيّة دي فينها؟ إذا استعدنا الأرض رح تؤيّدنا الجماهير دي".

"حأقولّك بصراحة يا نوَر فين المشكلة. إذا أنا فاوضت إسرائيل قد يسقط النظام ونروح في داهية. نحنا من وقت وصولنا إلى السلطة في 1963 منقول للشعب إن نِحنا حنحرّر فلسطين. قبل مدة زارني بيار الجميّل، رئيس "حزب الكتائب" في لبنان. قُلتلو: اتكلّموا عن فلسطين والعروبة واحكموا لبنان. العبيط ما قبلش".

"مانا عارف يا حافظ. المشكلة هيي النظام أوَل وتاني وتالت. لكنّ ما يصحّش تأجّل كلّ حاجة، بما فيها استعادة الأرض السوريّة، خوفاً من سقوط النظام".

هنا طلب حافظ شقيقه رفعت الذي حضر للتوّ إذ كان يجلس في غرفة قريبة في القصر، وسأله رأيه فيما السادات يتأمّل حوار الأخوين. لكنّ قرار رفعت كان مشجّعاً: "اذهب يا حافظ، اذهب. أنا أتولّى أمر الذين سيحاولون التآمر والغدر. سأكسّر رؤوسهم. ثمّ لماذا لا نعقد اتّفاقيّة أمنيّة، ملحقة باتّفاقيّة السلام، مع إسرائيل؟ في هذه الحالة تتولّى هي التدخّل حفاظاً على النظام". "هذا كثير" قال السادات، فيما هزّ حافظ رأسه بالموافقة. لكنّ في هذه اللحظة نفسها، دخل مصطفى طلاس وأخبرهم أنّ عبد الحليم خدّام دعا إلى اجتماع للقيادتين القوميّة والقطريّة لـ"حزب البعث" للخروج بقرار حزبيّ يقضي "باعتقال السادات ومنعه من التوجّه إلى إسرائيل".

"الله الله، صار عبد الحليم دا ياخد قرارات!"، قالها السادات كأنّه يحرّض حافظ الذي طلب من أخيه اعتقال خدّام فوراً، وإذ طلب طلاس أن ينضمّ إلى رفعت في تلك المهمّة، أمره حافظ أن يبتعد عنها: "هذه مسألة جدّيّة يا مصطفى. أنت عندك ما تهتمّ به".

وبالفعل نادى حافظ زوجته:

"أنيسة، أنيسة... حضّري لي ملابسي لثلاثة أيّام".

"خير إن شاء الله"، سألت أنيسة بعد أن سلّمت على الرئيس السادات بسرعة وبشيء من المسافة والتحفّظ.

"أنا ذاهب في رحلة إلى الخارج بصحبة سيادة الرئيس".

"إلى أين يا حافظ؟".

"إلى إسرائيل".

وقفت مشدوهةً: "ماذا؟".

"إلى إسرائيل، نعم إلى إسرائيل. العالم يتغيّر يا أنيسة. أرجوك أن تسرعي في تحضير الملابس. هناك طائرة أخرى ستنطلق من عمّان وتقلّ الملك حسين وياسر عرفات. ينبغي ألّا تسبق طائرتنا".

السادات كان ينظر باستحسان إلى ما يقوله حافظ لزوجته. لكنّ أنيسة فاجأته بطلب أغضبه وحيّر الرئيس المصريّ:

"حافظ، لا تنسَ أن تشتري لعبة لبشّار من هناك".

"افهمي يا أنيسة... الموضوع مصيريّ. أنا لست ذاهباً للتبضّع وشراء الألعاب في إسرائيل. ابنكِ صار عمره 12

سنة يا أنيسة. آن الأوان أن يكفَّ عن الألعاب ويهتمَّ قليلاً بدروسه. يا له من ولد تافه".

على أنَّ الأمور لم تسر تماماً كما توقّع الرئيسان. فعلي دوبا وعلي حيدر ومحمّد ناصيف وباقي الضبّاط الكبار نفّذوا حركة انقلابيّة ناجحة فيما كانت الطائرة تقلّهما إلى تلّ أبيب. رفعت الأسد اعتُقل. عبد الحليم خدّام سمّي رئيساً مؤقّتاً للحكومة. الانقلابيّون ما لبثوا أن أصدروا بياناً جاء فيه: "إنّ مبرّر وجودنا هو الصراع المصيريّ مع إسرائيل"، متّهمين حافظ وأنور بالخيانة.

في الطائرة، وجهُ حافظ امتقع. السادات خبط يداً بيد: "يا خبر أسود". حافظ قال له: "لقد ورّطتَني يا أنور. ألم أقل لك إنّ نظامنا يسقط بمجرّد أن نقترب من السلام، أيّ سلام".

"لم يكن هذا قصدي يا حافظ. لم نقدّر أنّ أموركم هشّة إلى هذا الحدّ".

"أمّا وقد حدث ما حدث، فهل تعتقد أنّ بيغن سيتدخّل لإعادتي إلى السلطة؟".

"لا أظنّ ذلك. يبدو أنّ الانقلاب نجح بالكامل، ونحن لم نصل بعد إلى تلّ أبيب ولم نعقد أيّ سلام". لكنْ ما إن مرّت لحظة صمت حتّى أضاف السادات: "أنت أخي يا حافظ. يمكنك أن تذهب معي إلى القاهرة، ثمّ نستدعي عائلتك إلى مصر. هناك تعيش بأمان موفور الكرامة".

"اعذرني يا أنور. فذكرياتي عن القاهرة التي تعود إلى سنوات الوحدة لا تبعث إلّا على الاكتئاب. هذا لا علاقة له ببلدكم العظيم، ولا باستعدادك النبيل لاستضافتي. إنّه يتعلّق بظروف إقامتي أنا آنذاك والأشباح التي لا تزال تطاردني بسببها".

"لكنّك لن تستطيع العودة إلى دمشق. حتماً سيقتلونك".

"تعرف بماذا أفكّر: أنا لن يقابلني مناحيم بيغن بعدما خسرت رئاستي. أنت ستقابله. قل له: حافظ ينوي البقاء عندكم. اطلب منه أن يدبّروا لي قرية في فلسطين المحتلّة تشبه القرداحة".

"سوف أفعل. كما تشاء يا حافظ. لكنّ نصيحتي لك أن لا تستعمل هنا هذا التعبير - فلسطين المحتلّة - بعد الآن. إنّهم يطردونك فوراً".

وعاد السادات إلى القاهرة وبقي حافظ في تلّ أبيب، وراحت عواصم العالم تبذل الجهود لكي تسمح دمشق لعائلة الأسد بالانضمام إليه. أمّا في دمشق نفسها، فراح التلفزيون والإذاعة والصحف تتبارى في هجاء الأسد واعتباره شخصاً دسّه الماسونيّون في "حزب البعث".

خطاب الرئيس مرسي بمناسبة السنة الميلاديّة 2015

كُشف النقاب أخيراً عن خطاب سرّيّ ألقاه الرئيس المصريّ محمّد مرسي في ثلاثين من كبار كوادر "الإخوان المسلمين". ويبدو واضحاً اليوم أنّ العودة إلى هذا الخطاب، الذي ترافق مع عيد رأس السنة الميلاديّة قبل ثلاثة أعوام، تتيح فهم الكثير من السياسات التي اتّبعها مرسي وأدّت إلى تجديد انتخابه في 2016.

لكنْ يبقى، وقبل الدخول في البنود التي تطرّق إليها، أنّ مرسي كان بالغ الشفافيّة. فهو لم يتردّد في الإشارة إلى أمور شخصيّة في غاية الصراحة، كما جاء كلامه مشوباً بحسّ رفيع من الدعابة غير معهود في قادة "الإخوان المسلمين".

فقد ذكر أنّ المنصب الرسميّ علّمه عادات جديدة كما نجّاه من عادات قديمة كان يظنّها طبيعيّة. وهو ضرب مثلاً على ذلك، فيما كان يقهقه، بمبالغته في حكّ منطقة التقاطع بين أعلى فخذيه في حضور المستشارة الألمانيّة أنغيلا ميركل، وقال: "دي حاجة ما بتنعملش يا إخوان". كذلك تطرّق إلى زوجته السيّدة نجلاء علي محمود، فقال إنّه أقنعها بتقليد السيّدة أمينة أردوغان في لبس حجابات ملوّنة، وفي بذل بعض الجهود لرسم ابتسامة على شفتيها. ولم يَفُته أن يغمزها، هي الجالسة

في الصفَ الأماميَ، قائلاً: "وقُلتِلْها يا نجلا بلاش طبخ الكوشري والطعميّة في القصر".

وكانت لمرسي لفتته المدهشة حين اعترف أنَ عبد المنعم أبو الفتوح لا يقلّ عنه "حبّاً للبلد وشعبه"، وأنّ الإخوان أخطأوا بفصله، إذ كافأه بتسميته رئيساً لحكومة ذات أكثريّة إخوانيّة.

لقد بدأ السيسي خطابه بتهنئة الحضور برأس السنة الميلاديّة، مع أنّه لم يكن هناك أيّ قبطيّ بين الحضور، قائلاً إنّ على المصريّين ألّا يكتفوا بإحياء رأس السنة الهجريّة، بل عليهم أن يشاركوا العالم احتفالاته برأس السنة الميلاديّة، خصوصاً وأنّ هذا العيد لم يعد يملك دلالة دينيّة حصريّة، بل بات مناسبة زمنيّة جامعة وكونيّة "لا نستطيع أن نعزل أنفسنا عنها". وما لبث أن انتقل إلى المسألة القبطيّة في مصر، معتبراً أنّها مزمنة و"آنَ لنا أن نضعها في متحف التاريخ... الأقباط مظلومون في هذا البلد على الأصعدة جميعها، وهم يُظلمون كلّما زاد التعصّب في المجتمع والدولة"، ثمّ أضاف مؤكّداً أنّ "الدين لله والوطن للجميع". لكنّه ذهب خطوة أبعد أثارت امتعاض بعض الحضور من "الإخوان"، حين اعتبر أنّ نظريّة "أهل الكتاب" و"أهل الذمّة" لم تعد تتناسب مع المساواة بين المواطنين في حقوقهم وواجباتهم.

وتقدّم مرسي من هذا المدخل ليشرح موقفه الجديد من الإسلام والسياسة: "في 1928، يا إخوان، حين

أسَس الشيخ حسن البنّا "جماعة الإخوان"، بدا له أنّ الإسلام في خطر. فمصطفى كمال ألغى الخلافة، وفي الإسماعيليّة، حيث أُسّست الجماعة، تمركزت القيادة العسكريّة البريطانيّة ومراكز التبشير المسيحيّ. هذا الخوف كان مبرّراً، وهو ما جدّده انقلاب تموز/ يوليو 1952، وأنتم تعرفون جميعاً حجم الاضطهاد الذي تعرّضنا له في عهود عبد الناصر والسادات ومبارك، وكان من نتائج الاضطهاد في العهد الناصريّ أنّ الشهيد سيّد قطب اعتنق أفكاراً متطرّفة ليست من صلب الدعوة الإخوانيّة. الله يرحمو، بالغ كثيراً واللهُ لا يحبّ المبالغات". أمّا اليوم، كما مضى مرسي، "فهذا كلّه صار من الماضي. لقد افتتحت ثورة "يناير" العظمى عصر الديموقراطيّة. الآن، نخوض الانتخابات فنفوز بـ51 بالمئة ونحكم، كما حالنا الآن، أو نحصل على نسبة أقلّ فننتقل إلى المعارضة. لا بوليس سرّيّ ولا حكم مباحث ولا مساجين سياسيّين... ثمّ هل يُعقل أن نخاف على الإسلام في مصر، بل في عموم العالم الإسلاميّ؟ بالعكس، ما نلاحظه اليوم، في ظلّ تزايد الكلام الغربيّ عن التعدّد والاختلاف، هو احترام أكبر للأديان والمعتقدات على اختلافها"، وبشيء من السخرية أضاف: "لكنْ لا تقولوا لي رجاءً إنّ الغرب لا يحترم بن لادن والظواهري، وإنّ عدم احترامهما يعني عدم احترام الإسلام. دول كانو بيقتلو أبرياء يا إخوان!".

وبعد قليل من الصمت فجّر مرسي القنبلة التالية: "إنّ الأوضاع التي أشرنا إليها من قبل تسمح لنا بالتحوّل إلى حزب ديموقراطيّ إسلاميّ بالمعنى الذي يقصده الأوروبيّون بالديموقراطيّة المسيحيّة، أي أن ندافع عن موقف ثقافيّ عريض يحمل قيماً يتهدّدها التطرّف الإلحاديّ أو الليبيراليّ. أمّا أن نفرض على فلان أن يصلّي وعلى فلان أن لا يشرب الخمر، فهذه مهمّة الله سبحانه وتعالى، لا مهمّتنا نحن. وهنا لا بدّ لي من التطرّق إلى مسألة حسّاسة هي مسألة المرأة في مجتمعنا...".

لكنْ في هذه اللحظة اقترب منه موظّف في القصر الرئاسيّ وهمس في أذنه، فاستشاط مرسي غضباً: "الله الله الله، أعمل إيه في السيسي ده. أنتم تعرفون يا إخوان أنّنا أوقفنا التعذيب في السجون، كما وفّرنا للضابط الانقلابيّ عبد الفتّاح السيسي الراحة التي يطلبها السجين. هو في البداية راح يرسل إليّ الرسائل التي يعتذر فيها عن محاولته الانقلابيّة ويكيل لي المدائح لأنّني جعلته وزير دفاع، مؤكّداً أنّه غدر بي وخانني. قلت: ماشي. بعد ذلك وصلتني تقارير بأنّه يقضي الوقت يبكي ويصلّي. قلت: لا بأس. لكنّ التطوّر الأخير هو المقلق: فمنذ ثلاثة أشهر أصيب الرجل، على ما يبدو، بعارض غريب: بيقلَع هُدومو عشرين مرّة في اليوم، بيقلعها بالكامل، أنتو عارفين ده يعني إيه، وبيروح يهتف وهُوَّا عاري أنّو هُوَّا نابوليون"، ثمّ أكمل

بالفصحى: "الحرس لا يكادون يُلبسونه ثيابه حتّى يعاود التعرّي. لقد فقدوا أعصابهم فعلاً، وهم لا يدرون ماذا يفعلون. أنا أيضاً لم أعد أعلم ماذا أفعل بالسيسي ده!".

وإذ تناول مرسي جرعة من كوب الماء الموضوع أمامه على الطاولة، عاد إلى الكلام عن المرأة: "إنها، مثل القبطيّ، مظلومة ومضطهَدة منذ زمن بعيد، وقد آن الأوان، في ظلّ ثورة "يناير"، أن تتحرّر. إنّ من الظلم والسخف التسامح مع ممارسات كتعدّد الزيجات أو اضطهادها، مرّةً بحجّة أنها ناقصة عقل ودين ومرّة بحجّة أنّها تحيض... هذه حجج سخيفة يا إخوان. نساء كمارغريت ثاتشر وغولدا مائير وأنديرا غاندي قُدن بلداناً وخُضن حروباً". وفجأة صرخ أحد المندوبين الإخوانيّين من القاعة: "لكنهنّ فعلن هذا بعد أن توقّفن عن الحيض بسبب تقدّمهنّ في السنّ"، فاستشاط مرسي غضباً: "يا غبي، هناك وزيرات شابّات كثيرات في أوروبا اليوم، وكلّهنّ يَحضن". وأردف بالعاميّة مجدّداً: "حاجة تجنّن خالص. تحيض! ومالو يا أخي! عايز نركّب عدّاد للي تحيض واللي ما تحضشِ".

وإذ سادت في القاعة بعض الفوضى، تابع الرئيس المصريّ: "سأصارحكم بمسألة أظنّها مهمّة جدّاً، هي شخصيّةٌ بقدر ما هي سياسيّة. فتظاهرات يونيو 2013 الشعبيّة ضدّي علّمتني الكثير، وأنا الآن أعتبر تلك الثورة استكمالاً وتتويجاً وتصويباً لثورة "يناير". لقد دفعتني

تلك المظاهرات إلى التهام الكتب التي تتناول علوم السياسة والقوانين والدساتير، كما قرأت بضعة كتب في الاقتصاد. وكان ما اكتشفته، ممَا أريد أن أشارككم إيّاه، خطيراً. فأوّلاً، ليست لدينا، نحن "الإخوان"، أيّ فكرة عن العمل في ظلّ نظام سياسيّ. لقد نشأنا وتطوّرنا كتنظيم حزبيّ في ظلّ العنف والقهر والخوف، واعتقدنا أنّنا نستطيع، بمجرّد أن نصل إلى السلطة، أن نفعل كلّ ما يحلو لنا. هذا ليس صحيحاً، لأنّ كلّ تفويض انتخابيّ محدودٌ بحدود معيّنة لا يتخطّاها، وهناك في الحياة أمور ليست من اختصاص السلطة السياسيّة بتاتاً. وثانياً، ليست لدينا أيّ فكرة جدّيّة عن الاقتصاد. ساعةً نستشهد بالرسول صلّى الله عليه وسلّم في المدينة، وساعة نستشهد بالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين. لكنّ هذا لا ينفع اليوم حيث باتت الأمور أعقد كثيراً. لهذا اضطررت أن اعتمد على اقتصاديّين ليس بينهم إسلاميّ واحد، وبالفعل نجحنا في التوصّل إلى سياسة جمعت بين مهمّتين صعبتين تحتاجهما مصر بإلحاح: من ناحية، جذب استثمارات خارجيّة لإطلاق دورة اقتصاديّة في البلد، ومن ناحية أخرى، تنشيط شبكة الأمان الاجتماعيّ التي تحمي مَن هم أشدّ فقراً وضعفاً من المواطنين. إنّ شعارنا الشهير "الإسلام هو الحلّ" قد يصلح في الوصول إلى السلطة، لكنّني أصارحكم القول إنّه لا يفيدنا كثيراً في بناء السلطة".

وأنهى مرسي خطابه بفقرة شديدة الدلالة: "لا يسعني أيّها الإخوان إلّا الشعور بالامتنان الكبير والتوجّه بالشكر الدائم إلى الحركة الشعبيّة التي أطلقت ثورة "30 يونيو". فهذه الحركة ما إن أحسّت أنّ بعض الضبّاط المغامرين سيستغلّونها لإطاحة النظام الديموقراطيّ والعودة بنا إلى الحكم العسكريّ، حتّى عاودت الالتحام بي وبالرموز المنتخبة والمؤسّسات الدستوريّة. بهذا برهن التقليد الديموقراطيّ في بلدنا أنّه قويّ ومتين، وبهذا أفشلنا المحاولة الانقلابيّة وحافظنا على الديموقراطيّة، كما أتيح لي أن أباشر تعلّم الدروس التي تعلّمتُها. لقد اعترف قائد المؤامرة الانقلابيّة المدعوّ عبد الفتّاح السيسي أنّه كان ينوي سجني، وربّما إعدامي، والتنكيل مجدّداً بـ"الإخوان". لكنّه اعترف أيضاً أنّ انقلابه كان يستهدف باقي الأحزاب والقوى والأفكار السياسيّة من دون استثناء. لكنّنا انتصرنا في النهاية بفضل الحركة الشعبيّة، وها هو المدعوّ السيسي يواجه العقوبة التي يستحقّها في السجن".

لكنْ ما إن حيّى مرسي الشعب والديموقراطيّة وثورتي يناير ويونيو وهمّ بالنزول عن المنبر، حتّى طالبه بعض المندوبين بكلمة عن سياسته الخارجيّة، فكان هذا جوابه: "اسمعوا يا إخوان. السياسة الخارجيّة مسألة طويلة ومعقّدة، وسوف أخصّص قريباً جلسة خاصّة للتحدّث عنها. لكنّني الآن سأكتفي بموضوع

واحد ربّما كان أكثر ما يشغلنا في مصر عموماً، وفي محيط الإخوان المسلمين خصوصاً. إنّها مسألة غزّة وحركة حماس. أنا ملتزم الدفاع عن الفلسطينيّين في غزّة لأنّهم مظلومون وضحايا، أمرُهم يهمّني كبشر وكمسلمين وكعرب. لكنّني أيضاً ملتزم مصالح مصر العليا التي تستدعي عدم تورّطها في نزاعات ومنازعات كبرى. إنّنا لا نحتمل خسارة عائدات المرور في قناة السويس، أو خسارة تحويلات العاملين في الخارج، لكنّنا خصوصاً لا نحتمل انهيار اتّفاقيّة "كامب ديفيد" والعودة إلى حالة الحرب مع إسرائيل. ما أفعله حاليّاً هو الضغط باتّجاهين: الضغط على إسرائيل كي تخفّف عجرفتها ووساوسها الأمنيّة، ما يؤدّي إلى تخريب حياة السكّان المدنيّين الأبرياء، والضغط على "حركة حماس" كي تتخلّص من سلوكها الطفوليّ وتعلّقها بصواريخ الخردة التي تضرّها أكثر كثيراً ممّا تضرّ إسرائيل. وبصراحة، على "حماس" أيضاً أن تُبعد عن صفوفها هذا المعتوه محمود الزهّار الذي ينوي جرّها إلى مواقع إيرانيّة ننظر إليها، نحن في مصر، بكثير من التحفّظ والارتياب. إنّ هؤلاء المتطرّفين يظنّون أنّهم يستطيعون، باسم الإسلام والماضي الإخوانيّ المشترك، أن يجرّونا إلى مواقعهم، ولا يفهمون أنّنا نعتبر الإسلام عنصراً لتقوية مصر، لا عنصراً في إضعافها".

وهرول مرسي خوفاً من أن يتأخّر عن استقبال المستشارة ميركل التي يُفترض أن تحطّ طائرتها في

مطار القاهرة الدوليّ في أيَ لحظة.

لبنان تحت سلطة "الحزب السوريّ القوميّ"... لساعات

صبيحة الأوّل من كانون الثاني/ يناير 1962، سمع اللبنانيّون من إذاعة بيروت البيان الرقم واحد: إعلان منع التجوّل. هكذا عرفوا أنّهم لن يتمكّنوا من الاحتفال بعيد رأس السنة، وأنّ عليهم البقاء في بيوتهم قريباً من أجهزة الراديو.

وبالفعل انشدّوا إلى تلك الأجهزة، وما هي إلّا لحظات حتّى سمعوا البيان الرقم اثنين الذي يقول بالحرف: "لقد استولى عدد من الضبّاط القوميّين الشرفاء على قيادة الجيش ووزارة الدفاع ورئاسة الأركان والمطار والمرفأ والإذاعة. إنّ عهد يهود الداخل قد ولّى وبدأ عهد المجد والعنفوان. الحياة وقفة عزّ فقط. تحيا سوريا ويحيا سعادة".

هنا بات واضحاً للجميع أنّ ضبّاط "الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ" استولوا على السلطة بانقلاب عسكريّ. ما فشل زعيمهم أنطون سعادة في تحقيقه عام 1949، حقّقوه اليوم.

البيان الرقم 3 أوضح المزيد: "لقد تمّ اعتقال عدد من الخائنين المتآمرين على رأسهم فؤاد شهاب [رئيس الجمهوريّة] وصبري حمادة [رئيس مجلس النوّاب] ورشيد كرامي [رئيس الحكومة] وكمال جنبلاط وبيار

الجميّل [وزيرين وقطبين سياسيّين]. إنّ الأمّة ستحاكمهم على الجرائم التي ارتكبوها بحقّها..."."

الخطوة التالية كانت، بطبيعة الحال، اجتماع الحكّام الجدد للتداول في الحاضر والمستقبل القريب. الاجتماع تمّ في مقرّ وزارة الدفاع، فضمّ الضبّاط الثلاثة الذين نفّذوا الانقلاب، أي النقيبين فؤاد عوض وشوقي خير الله والملازم علي الحاج حسن، وكذلك قادة "الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ" المدنيّين: رئيسه عبد الله سعادة ورئيس مجلس العُمُد محمّد بعلبكي وأعضاء من المجلس الأعلى ومجلس الأمناء هم أسد الأشقر وإنعام رعد وإلياس جرجي قنيزح ومصطفى عزّ الدين وعبد الله القبرصي.

الاجتماع بدأ بوقوفهم وهم يرفعون أذرعهم اليمنى زوايا قائمة، فيما يهتفون: "تحيا سوريا ويحيا سعادة"، ثم تولّى الكلام عبد الله سعادة: "لقد انتصر العزّ على الذلّ، والمجد على الهوان..."، لكنْ ما إن بدأ كلمته حتّى دخل عليهم القياديّ في الحزب بشير عبيد وعلى وجهه علامات هلع: "يا رفقائي، لقد علمت أنّ الأمور لم تستتبّ للحزب تماماً. المناطق والطوائف تتحرّك ضدّنا"، وخبط شوقي خير الله يده بقوّة على الطاولة: "هل قلتَ طوائف يا رفيق؟. نحن أمّة واحدة لا طوائف فيها. إنّك متأثّر بلغة اليهود والأعداء. طوائف؟ كلّنا مسلمون لربّ العالمين، منّا من أسلم بالقرآن ومنّا من أسلم بالإنجيل ومنّا من أسلم بالحكمة، وليس لنا من عدوّ

نقاتله في ديننا وحقّنا وأرضنا إلّا اليهود... هكذا علّمنا سعادة. أليس كذلك يا رفيق؟".

"حسناً يا رفيقي، حسناً، لكنْ دعنا نفهم قليلاً ما الذي يجري في الخارج؟"، قال أسد الأشقر، فتشجّع عبيد وراح يشرح: "علمت أنّ شيعة الهرمل المستائين من اعتقال صبري حمادة ودروز الشوف الغاضبين لاعتقال كمال جنبلاط ومسيحيّي الأشرفيّة والجمّيزة الذين ساءهم اعتقال بيار الجميّل وسنّة طرابلس الذين يريدون فوراً إطلاق سراح رشيد كرامي وغيرهم وغيرهم يرفضون نظامنا الجديد. بعض شبّان تلك المناطق نزلوا مسلّحين إلى الشوارع. هناك فتاوى أصدرها رجال دين مسلمون تدعو أبناء طوائفهم العسكريّين إلى الانشقاق عن الجيش. البطريرك المارونيّ ورؤساء الكنائس المسيحيّة كلّهم اعتبروا الانقلاب مؤامرة على لبنان...".

وتدخّل علي الحاج حسن: "لكنّ الجيش معنا ويستطيع إلحاق الهزيمة بهم جميعاً..."، فقاطعه فؤاد عوض: "لا يا رفيق، للأمانة والدقّة، الجيش ليس معنا. لقد كذبتُ على القوّات العسكريّة التي زحفتْ بها من صور إلى بيروت، إذ قلتُ لها إنّ كمال جنبلاط احتلّ وزارة الدفاع وأنّ علينا تحريرها. أخشى أن يحوّلوا بنادقهم نحونا بمجرّد أن يكتشفوا الحقيقة".

وفُتح باب القاعة بقوّة فدخل الشاعر الزجليّ والقياديّ القوميّ عجاج المهتار الذي أصرّ على أن يلقي

فيهم آخر زجليّة كتبها عن "ثورة زعيم وشعب/ بعد طول الانتظار". لكنّ ما إن ألقى ثلاثة أبيات أو أربعة حتّى سُمع صوت رصاص تبيّن أنّ عسكريّين متمرّدين أطلقوه باتّجاه القاعة التي يجتمع القادة القوميّون فيها. لقد أصيبت بعض النوافذ التي اخترقتها رصاصة استقرّت قريباً من رأس إنعام رعد.

"نحن في خطر"، قال مصطفى عزّ الدين. "قلتُ لكم إنّ علينا الحذر لأنّ الجيش ليس معنا. إنّه مع فؤاد شهاب"، علّق فؤاد عوض. هكذا اغتنم عجاج المهتار الفرصة ليلقي عليهم بيته الزجليّ المفضّل: "نحنا الأمّة ونحنا الجيش/ ونحنا سيوف الاستقلال". لكنّ إنعام رعد، الذي أصابته الرصاصة بالذعر، صرخ في المهتار: "ك... أخت الأمّة... هلّق مش وقتها. حياتنا بخطر يا رفيق". شوقي خير الله شبك كفّيه وقرّبهما إلى صدره كما أغمض عينيه وانكفأ على نفسه: "اغفر لهم يا زعيمي، إنّهم لا يدرون ماذا يقولون".

هدأ الرصاص على نحو أوحى أنّ المؤيّدين للانقلاب أسكتوا مصادره. عبد الله سعادة حاول أن يعاود السيطرة على الوضع بوصفه رئيس الحزب: "علينا يا رفقائي أن نفكّر في المستقبل. العثرات الصغيرة على الطريق لا بدّ منها، لكنّها ينبغي أن لا توقف مسيرتنا. السؤال المُلحّ الآن: كيف نؤسّس سلطتنا الجديدة؟". محمّد بعلبكي أبدى رأياً وافقه فيه إنعام رعد ومصطفى عزّ الدين: "لماذا لا نتّصل بالزعماء المناوئين للشهابيّة

ككميل شمعون وصائب سلام؟ هؤلاء قد يوفّرون لنا بعض الغطاء الطائفيّ الذي نحتاجه". وجه شوقي خير الله امتقع اعتراضاً على الاتّصال بزعماء طائفيّين، لكنّ عبد الله سعادة وأسد الأشقر اغتنما الفرصة: أوّلهما بادر إلى الاتّصال بصائب سلام الذي رفض الإجابة عن مكالمته، والثاني اتّصل بكميل شمعون الذي وبّخه لاعتماد وسيلة غير شرعيّة لا يرتضيها المسيحيّون هي الانقلاب العسكريّ.

"لكنّنا حلفاء يا فخامة الرئيس، قاتلنا معاً قبل ثلاث سنوات ضدّ عبد الناصر".

"نعم، لكنّكم قاتلتم في ظلّ الأرزة، والآن تريدون أن تحكموا في ظلّ الزوبعة".

بانتهاء المكالمة القصيرة، اقترح فؤاد عوض تكليف فوزي القاوقجي رئاسة الحكومة، فصرخ بعلبكي: "هذا رجل لا يعرفه أحد في مدينته طرابلس. نريد أشخاصاً يضيفون قوّةً إلى قوّة الحزب ولا يستمدّون قوّتهم من قوّته".

"لكنّ القاوقجي هو الذي قاد جيش الإنقاذ في فلسطين، يا رفيق محمّد".

"هذا ما لا يذكره أحد، يا رفيق فؤاد. أنا نفسي نسيت هذا الاسم وهذا الموضوع الذي يرجع إلى 1948... أرجوك أن تفكّر في أسماء أخرى".

"ما رأيكم في تسمية فؤاد لحّود رئيساً للجمهوريّة؟".

هنا تدخّل أسد الأشقر: "أنا ابن المتن وأعرف منطقتي عائلةً عائلةً. الشخصان القويّان في آل لحّود هما سليم وجميل، أمّا فؤاد، فلا يقبضونه جدّاً".

وكسراً للوجوم السائد، فيما تتتابع أخبار انتفاضات الطوائف وانشقاق الوحدات العسكريّة، كانت لإلياس جرجي قنيزح مداخلته: "لقد لاحظتُ أنّكم طرحتم اسماً مارونيّاً لرئاسة الجمهوريّة واسماً سنّيّاً لرئاسة الحكومة. هذه مخالفةٌ خطيرة لروح العقيدة وسقوطٌ في مستنقع الطوائف. علينا أن نتسامى إلى مستوى التعاليم التي علّمنا إيّاها الزعيم أيّها الرفقاء".

وفيما سأله "وكيف نتسامى ونحن في هذه الورطة؟"، كان إنعام رعد يركّز عينيه على عجاج المهتار متخوّفاً من أن يصدح بزجليّة أخرى تحضّ على التسامي وتشتّت التركيز. عجاج لم يفعل، لكنّ قنيزح أجاب: "علينا أن نقلب الطاولة على الطوائف، بأن نحوّل النقاش إلى نقاش فكريّ حضاريّ على النحو الذي يليق بأحفاد نبوخذ نصّر وأرتحششتا وسعادة. فلنحدّثهم عن الدولة القوميّة التي نريد أن نبنيها. عن نيّتنا تحرير فلسطين والإسكندرون وقبرص. عن نظريّة القيمومة في الاقتصاد. عن نظريّة المدرحيّة في الفلسفة. إنّ شعبنا العظيم سوف...". لكنّ تعبير "شعبنا العظيم" استفزّ فجأة عبد الله سعادة:

"هيدا شعب خرى مش عظيم. مرافقي رياض درويش كان يتجسّس عليّ لضابط المكتب الثاني سامي

الشيخة. رفيقنا من الشام فضل الله أبو منصور كان يتجسّس علينا للضابط الآخر سامي الخطيب. أ... بهالشعب عن بكرة أبيه. وبعدين يا رفيق إلياس، من كلّ عقلك رح يوقّف الشعب معنا إذا حكينالو عن المدرحيّة والقيمومة، أو إذا قلنا أنّو بدّنا نحرّر فلسطين والإسكندرون وقبرص؟ وين عايش يا إلياس؟".

وبضحكة ساخرة دخل عبد الله القبرصي على الخطّ: "يعني فوق كلّ خَرانا، يا رفيق الياس، رح نحطّ بضهرنا دَفعا وحدي إسرائيل وتركيّا واليونان، يعني "الحلف الأطلسي"! ومن جهة تانية، الشيوعيّين بيكرهونا وبيعتبرونا عُملا الإنكليز، وعبد الناصر بيعتبرنا عُملا الملك حسين. والله كملت معنا. هيك كتير".

"مش ماشي الحال يا رفقائي"، قال إنعام رعد المرتبك والمذعور، فيما كانت تعود زخّات الرصاص بقوّة أعلى كثيراً من المرّة السابقة.

"لكنّنا سيطرنا على وزارة الدفاع ورئاسة الأركان والمطار والإذاعة..."، قال أسد الأشقر بخطابيّة مؤثّرة، فيما كانت أعداد لا حصر لها من العسكريّين والمدنيّين تتدفّق على وزارة الدفاع وتحاصرها. بعض المدنيّين جاؤوا بأسلحتهم، وبعضهم كانوا يرفعون صُور شهاب وكرامي وجنبلاط والجميّل وحمادة.

محمّد البعلبكي تساءل بتوتّر: "كيف عرفوا بهذه السرعة بالانقلاب؟"، أجابه أسد الأشقر: "أنا لم أخبر أحداً سوى تسعة أشخاص كانوا يزورونني، وهم من

أشرف المواطنين وأخلصهم. هؤلاء كانوا يصوّتون لي دائماً في الانتخابات ويقولون لي: بعد عمر طويل، ستنتقل زعامة المتن إلى نجلك غسّان، أو نجلك نظام، أو كريمتك نضال. كيف لا أخبر أمثال هؤلاء أنّنا سنقلب نظام الدهاقنة قريباً ونقيم النظام القوميّ الاجتماعيّ؟". وبدوره قال عبد الله سعادة: "أنا أخبرت خمسة فقط، هم أيضاً من المواطنين الشرفاء الذين ينتخبونني كلّما ترشّحت للانتخابات في الكورة، مع أنّهم ليسوا حزبيّين". وكأنّه ينفي عن نفسه أيّ اتّهام، أعلن عبد الله القبرصي أنّه نفّذ الأوامر الحزبيّة بإخبار سبعة نوّاب وسياسيّين سبق للحزب أن فكّر بالتعاون معهم بعد نجاح الثورة، مضيفاً: "لم أخبر أحداً غيرهم".

وفجأة هتف شوقي خير الله: "فليعلم بأمر ثورتنا مَن يعلم. هذا ليس مهمّاً لأنّ انتصار قضيّتنا هو القضاء والقدر. الشجاع وصاحب الحقّ لا يخشى انكشاف الأسرار. فليواجهنا الطائفيّون وجهاً لوجه. هم معتادون الغدرَ ونحن لا نغدر. ليفعلوا ما يشاؤون، فالطائفيّة مهزومة سلفاً، لا مكان لها في أمّتنا". لكنّ الآخرين تركوا خير الله يتحدّث كأنّه يهذي ومالوا بأعناقهم نحو مصدر الصوت الأعلى، صوت الضابط الذي كان يقتحم القاعة ويصرخ بهم: "سلّموا أنفسكم ولاه، وبلا هالطقّ الحنك. يلّا ولاه امشوا قدّامي... ع الحبس فوراً".

هكذا كان، وهكذا انتهت قصّة انقلاب سريع.

محضر تحقيق مع ميشال عفلق في العراق، 1941

قرأ السيرجنت البريطانيّ وليم ماكغريف الاسم بصوت مرتفع: ميشال أفلك. وأضاف بشيء من البرود: "الرجاء إدخاله إلى غرفة التحقيق".

ذاك اللقاء الذي دام ساعة، مهّد لحوار وصفه لاحقاً صحافيّ عراقيّ بالقول: "لقد اجتمع في غرفة واحدة عتوّ وصلف إمبراطوريّان لا يُطاقان وهزال وتفاهة عربيّان يصعب وصفهما".

حدث ذلك في أواسط أيّار/ مايو 1941، بعد أن تمكّن الجنود البريطانيّون من إلحاق الهزيمة بالمحاولة الانقلابيّة التي نفّذها رشيد عالي الكيلاني وضبّاط "المربّع الذهبيّ".

ماكغريف أشار بيده إلى الشابّ الذي أحضروه إليه داعياً إيّاه أن يجلس، فيما كان يقلّب أوراقه بيد أخرى:

"اسمك ميشال أفلك... أليس كذلك؟".

الشابّ الذي كان يرتجف من خوفه صحّح: "ميشال عفلق".

ماكغريف ردّ ضاحكاً: "للأسف، نحن لا نملك في لغتنا الإنكليزيّة هذين الحرفين اللذين تملكهما لغتكم الغنيّة: العين والقاف (ثمّ لفظهما بكثير من الصعوبة والافتعال). لكنّني آمل يا سيّد أفلك أن يكون هذا هو سوء التفاهم الوحيد بيننا، مع شكّي في ذلك. حسناً...

أنت سوريّ وأستاذ مدرسة في الحادية والثلاثين من عمرك. ما الذي جاء بك إلى بغداد لكي تقاتل ضدّنا؟".

"أنا، يا مستر، أنتمي إلى أمّة – يعني – عربيّة واحدة".

"آه، هذا الذي كنّا نريد أن نصنعه في دمشق قبل أكثر من عشرين سنة في ظلّ فيصل بن الحسين، ولم نوفّق فيه. لكنْ قل لي: ماذا يعني ذلك بالضبط؟".

"يا مستر، لستُم أنتم من صنع لنا هذا. أنتم – يعني – قوّضتموه بوعودكم ومعاهداتكم السرّيّة...".

"لا يا سيّد أفلك. نحن الذين صنعناه لكم، وأنتم الذين قوّضتموه. هل تظنّ أنّ بريطانيا العظمى كانت مستعدّة لمواجهة فرنسا عسكريّاً فيما أنتم تتصارعون في دمشق: عودة أبو تايه وأعمال النهب والسلب، والضبّاط العراقيّون مقابل السوريّين، وتجّار المدينة مقابل علمائها الدينيّين... على أيّ حال، ليس هذا موضوعنا الآن، مع تقديري الكامل بأنّكم لو نجحتم في إقامة نموذج معقول في دمشق لغيّرتم أسوأ المخطّطات البريطانيّة حيالكم". وبعد صمت قصير ونظرة تفحّص في الأوراق المتناثرة على طاولته، مضى السيرجنت ماكغريف: "قل لي لماذا أنت هنا؟".

"لكي – يعني – أقاتل".

"لكنّ المعلومات هنا تقول إنّك وصلت، أنت وباقي رفاقك من سوريّا، بينما كان ينتهي القتال ويبدأ استسلام المتآمرين".

"لم نقدّر أنّ الثورة ستفشل بهذه - يعني - السرعة...".

"أكثر من هذا، تقول المعلومات التي لديّ إنّ الجنود المتمرّدين حين أعطوك بندقيّة رميتَها أرضاً وارتعدت فرائضك خوفاً فأتوكَ بكوب من العصير المبرّد... فلماذا إذاً جئتَ لـ"نصرة العراق" كما تدّعي؟ من الذي اختارك لهذه المهمّة".

هنا، انتشر لون أحمر ينمّ عن الخجل على وجه عفلق الذي قال بصوت منخفض نسبيّاً:

"اختارتني أمّتي. يعني - اختارني التاريخ والقدر...".

لكنّ ماكغريف استلقى على ظهره وهو يضحك: "يا سيّد أفلك، قد تختارك أمّك، أو خالتك في أبعد الحدود. أمّا أن تختارك أمّتك، فهل صوّتث أمّتك على ذلك؟ والأدهى أن يختارك القدر. يا إلهي! هل رأيتَ القدر وهو يختارك؟ ثمّ إذا افترضنا أنّ هذا التخريف الذي تقوله صحيح، فلماذا وقع اختيار الأمّة والقدر عليك أنت، أيّها الشابّ المسكين البائس الواقف أمامي الذي خاف من البندقيّة ورماها أرضاً؟".

"نحن - يعني - لا نفكّر هكذا يا مستر".

"كيف تفكّرون إذاً؟".

"أنا، مثلاً، لم آتِ إلى العراق لأقاتل بالمعنى الذي - يعني - فهمتَه حضرتك. هناك مقاتلون كثيرون في

العراق. جئت لأقاتل بالأفكار، لأنشر أفكاري عن العروبة وعن الأمّة العربيّة – يعني".

"تقصد أفكاراً كالتي ذكرتَها لتوّك عن القدر وما إلى ذلك. حسناً، حدّثني عن المزيد منها...".

"إنّنا – يعني – نؤمن أنّ اللغة والتاريخ يوحّدان العرب...".

"اللغة يا سيّد أفلك؟ هل تقصد إذاً أنّنا نحن في بريطانيا ينبغي أن نتّحد في أمّة واحدة ودولة واحدة مع الأميركيّين والأستراليّين والكنديّين؟ إنّك تدعونا باسم وحدة اللغة لأن نعود إلى مستعمرات سابقة استقلّت عنّا فنعيد توحيدها. هذه سخافة محضة. ثمّ في حالة العراق، ماذا نفعل بقوميّات وإثنيّات كبرى لها لغاتها المستقلّة؟ أمّا التاريخ، فهناك حقب في تاريخ العراق وأيّ بلد عربيّ آخر لا تقلّ عن حقبته العربيّة وقد تفوقها... ماذا عن تلك العصور المديدة التي سبقت قدوم الإسلام من شبه الجزيرة العربيّة، ماذا عن حضارات ما بين النهرين الشهيرة؟".

"نحن – يعني – لا نفكّر هكذا يا مستر...؟".

"إذاً قل لي بحقّ الله كيف تفكّرون. أمرك عجيب يا سيّد أفلك".

"ما تقوله، واعذرني – يعني – إذا قلتُ هذا، ينتمي إلى التزييف الذي ألحقَه الاستعمار والاستشراق بالحقيقة العربيّة، بعدما فعل الشيء نفسَه الشعوبيّون من أتراك وفرس... لهذا، لا بدّ – يعني – من انقلاب في

الحياة العربيّة، انقلاب يبعث من جديد إلى الوجود أصالة الأمّة العربيّة وخصوصيّتها ورسالتها – يعني – الخالدة".

"إذاً تريدون تنفيذ انقلابات عسكريّة كثيرة لتغيير الأوضاع، وهذا ما جاء بكم إلى العراق؟".

"لا، لا، فعلاً نحن لا نفكّر مثلكم يا مستر. الانقلاب الذي نقصده انقلابٌ في الحياة العربيّة، تنتصر معه – يعني – الحياة على العدم".

"لقد تعلّمتُ خلال إقامتي في عدد من البلدان العربيّة مثلاً شعبيّاً أحبّه كثيراً يقول: "اقعد أعوج واحكِ جالس". بالله عليك يا سيّد أفلك أن تحكي جالس. الانقلاب هو الانقلاب. وفي الواقع العمليّ، فإنّ الذين سيصدّقون كلامك عن "الانقلاب في الحياة العربيّة" و"انتصار الحياة على العدم" وباقي هذه الترّهات سيكون أوّل ما يفعلونه، إذا استطاعوا ذلك، تنفيذ انقلاب عسكريّ. أليس كذلك؟".

"لا أقصد هذا".

"ماذا تقصد؟".

"أقصد – يعني، يعني، يعني–". هنا قاطعه السيرجنت البريطانيّ الذي بدا كأنّ صبره بدأ يخونه:

"كلمة يعني هذه، التي تكرّرها كثيراً، هل هي جزء من العقيدة التي تقول بها أنت والشبّان الذين يشبهونك في سوريّا؟".

"لا، أبداً هي – يعني – مجرّد طريقة خاصّة في الكلام...".

"آه، وأنت وفق المعلومات التي توفّرت لنا عنك لديك الكثير من الطرق الخاصّة في السلوك على ما يبدو. فأنت، مثلاً، تقضي ساعات طويلة في بيت الخلاء. هل هذا صحيح؟".

"نعم، يا مستر. أنا أقرأ عدداً من الصحف كما أكتب – يعني – مقالات وأحضّر الدروس التي أتلوها على طلّابي في الحمّام".

"الأمر يستدعي محلّلاً نفسيّاً يراجع مراحل تطوّرك الجنسيّ يا سيّد أفلك. لكن ألا تخشى أن يكون قد علق شيء من أجواء المراحيض بالكتابات التي تؤلّفها هناك؟ هذا أمر ينبغي أن يكون مقلقاً لك ولمن يؤيّدونك!".

حيال هذه الملاحظة الساخرة والمهينة، غضب عفلق غضباً أنساه خوفَه وحرّر لسانَه من كلمة "يعني":

"أرجوك يا مستر... أنا أنشأتُ شبيبة "الإحياء العربيّ" التي ستصير في يوم ما "حزب البعث العربيّ". بعض الشباب بدأوا يطلقون عليّ تسمية "فيلسوف القوميّة العربيّة"...".

"أنتَ ستُحيي العرب! لا تؤاخذني يا سيّد أفلك إذا قلتُ إنّك تفتقر إلى الحياة. وجهك بالغ الاصفرار تسرح فيه الكآبة والألم، وشفاهك لا تجيد الابتسام، وهذا فضلاً عن تفضيلك الحمّامات على كلّ مكان آخر. كيف تُحيي الملايين وأنت نفسك تفتقر إلى الحياة! وفوق

هذا، أنتَ فيلسوف القوميّة العربيّة! أنت! يا إلهي!"
وأضاف بالإنكليزيّة:

Damn it

وبعد لحظة سريعة أضاف ثانيةً بالإنكليزيّة:

Bloody hell

السيرجنت ما لبث أن سيطر على اندهاشه الكبير مستعيداً رزانته، ثمّ حدّق بعفلق وسأله:

"من هم أولئك الذين يسمّونك فيلسوف القوميّة العربيّة وينتظرون الإحياء على يديك؟".

"طلّابي، طلّاب مدرسة التجهيز، أهمّ مدرسة في سوريّا".

"يا إلهي. يا إلهي. يا للهول. هؤلاء إذا كبروا كان الله في عون سوريّا. أصارحك القول إنّني سأوصل توصية إلى رؤسائي بأن يُطيلوا انتدابهم على العراق ما أمكنهم ذلك، وأن يحاولوا إقناع الفرنسيّين بأن يفعلوا الشيء نفسه في سوريّا. شبّان يسمّونك أنت فيلسوف قوميّتهم ويتوقّعون إحياءهم وإحياءها على يديك ينبغي عدم تركهم وحدهم... هذا خطر عليهم، وقد يغدو خطراً على العالم كلّه".

سادت الغرفة حالة من الكآبة، قطعها ماكغريف بقوله:

"ربّما لاحظتَ يا سيّد أفلك أنّني تحدّثت معك في كلّ شيء إلّا الشيء الذي يُفترض أن أستجوبك بشأنه.

لماذا فعلتُ هذا؟ لأنّني أحسست من البداية أنّك لا تمثّل شيئاً جدّياً بغضّ النظر عن تسميتهم لك بالفيلسوف، وأنّك لم تلعب أيّ دور في مؤامرة الانقلاب. لقد مثّلتَ لي ما أعرفه عن أحوال كثيرين ممّن تسمّيهم مثقّفين في بلدانكم. لهذا سمحت لنفسي بأن أتسلّى معك قليلاً علّي أحسّن معرفتي بهذه الفئة التي أنت منها. لكنّ السؤال الذي أودّ أن أسألك إيّاه: كيف جئتَ إلى العراق لتدعم طرفاً معجباً بأدولف هتلر ويعوّل على دعمه؟".

"هذا لا يعنيني يا مستر. ألمانيا لا تحتلّ بلاد العرب. أنتم الإنكليز والفرنسيّون تحتلّونها".

"لكنّ هتلر وحش بشريّ. أليست لديك فكرة عن حكمه وتوسّعه، بل عن موقفه من العرب أنفسهم؟".

"هذا لا يعنيني...".

"هل يمكن لفيلسوف ألّا يعنيه هتلر ما دام لا يحتلّ بلده؟".

"أنتم الذين تستعمرون بلداننا يا مستر...".

"نحن هنا مُنتدَبون بقرار من عصبة الأمم. أمّا أنتم، يا سيّد أفلك، فمرتزقة من الخارج تسمحون لأنفسكم باستباحة كلّ شيء باسم القوميّة، القوميّة التي أنت فيلسوفها. اسمعني جيّداً يا سيّد أفلك. أنا لن أعتقلك لأنّك لا تستحقّ أن تُعتقل. اذهب إلى دمشق. اذهب من حيث أتيت. لا أريد أن أرى وجهك ثانية في هذا البلد. انقلع أنت وفلسفتك عن وجهي".

لبنان وقد خاض حرب 67

يوم الخامس من حزيران/ يونيو 1967، بدت مدن لبنان كتلة من نار. مظاهرات ضخمة في بيروت وطرابلس وصيدا تطالب بدخول الحرب العربيّة ضدّ إسرائيل إلى جانب مصر وسوريّا والأردن، رافعةً صور جمال عبد الناصر وعبارة "يا أهلاً بالمعارك". الكلّ وجّهوا آذانهم إلى إذاعة "صوت العرب" القاهريّة وهي تخبر مستمعيها أنّ الطائرات الإسرائيليّة تتساقط كالنسور الذبيحة. لماذا إذاً لا ندخل الحرب القوميّة الكبرى؟

سفير مصر في لبنان عبد الحميد غالب أدلى بتصريح لصحيفة **الأنوار** الناصريّة أحرج حكّام لبنان. قال: "نريد أن نفهم: هل يقف لبنان معنا أم مع إسرائيل؟". إذاعة "دمشق" هاجمت "أوكار العمالة والخيانة في بيروت". هذا المعنى، أو ما يقاربه، عبّرت عنه شعارات المظاهرات الكبرى وهتافات المشاركين فيها.

في بيروت، قاد المظاهرات شبّان عُرف منهم إبراهيم قليلات الذي رُبط اسمه قبل عام واحد بمقتل الصحافيّ اللبنانيّ كامل مروّة، والقياديّان في "حركة القوميّين العرب" محسن إبراهيم ومحمّد كشلي. كذلك برز بين الهتّافين شبّان آخرون عُرف منهم المدعوّان كمال شاتيلا ونجاح واكيم اللذان استرعى صراخهما انتباه المراقبين. لكنّ رئيس "حزب النجّادة" النائب السابق

عدنان الحكيم ما لبث أن انضمَ إلى المتظاهرين. في الساعة الحادية عشرة انضمَ أيضاً رئيس الحكومة السابق صائب سلام الذي بدا محرَجاً: فهو أسرَ لصحافيَ مقرَب منه أنَه لا يصدّق أخبار "صوت العرب"، وأنَه علمَ من متابعته لـ"بي بي سي" أنَ الإسرائيليّين دمَروا سلاح الجوّ المصريَ. لكنَه أضاف: "لا أجرؤ على عدم النزول. إذا فعلتُ، احترقتُ انتخابيّاً في بيروت وصرت مثل سامي الصلح". في حوالى الحادية عشرة، انضمَ إلى المتظاهرين الزعيم الدرزيَ الاشتراكيَ كمال جنبلاط مصحوباً بنائبه عن بيروت فريد جبران وبالأمين العامَ لـ"الحزب الشيوعيَ" نقولا الشاوي.

المظاهرة الضخمة ملأت شوارع بيروتيّة كثيرة، وكانت هتافاتها تشهَر بحكّام لبنان بوصفهم "عملاء للصهاينة".

شيء مماثل كان يحدث في طرابلس: المظاهرة هناك تقدّمها رئيس الحكومة نفسه، رشيد كرامي، والنائب المقرّب من الشيوعيّين هاشم الحسيني، ومعهما منافس كرامي، الطبيب البعثيّ عبد المجيد الرافعي والقياديّ الشيوعيّ محمود الواوي ووراءهم كان يسير مصطفى الصيداوي، قطب "حركة القوميّين العرب" في المدينة. الأكثر إدهاشاً في الأمر أنّ رئيس الحكومة كان يسير على رأس مظاهرة تشتم الحكم والحكّام!

في صيدا، قاد المظاهرة النائب الناصريّ معروف سعد، فأحسّ خصمه نزيه البزري بحرج دعاه هو الآخر

إلى الانضمام.

هذا في المدن السنيّة الكبرى، أمّا المدن الشيعيّة الأصغر، فشهدت أيضاً تظاهرات وإن لم تكن في الحجم نفسه. النائب علي بزّي قاد مظاهرة في بنت جبيل حملت يافطة كبرى تقول: "سنعلّم الصهاينة مجدّداً درس 1936"، علماً أنّ نتائج المواجهات في 1936 لم تكن في مصلحة الفلسطينيّين وحلفائهم في بنت جبيل. في صور، قاد التظاهرة النائب المقرّب من البعثيّين جعفر شرف الدين ومعه منافسه من "حركة القوميّين العرب" مصطفى الزيّات والقياديّ البعثيّ الشابّ علي الخليل. في بعلبك، كان محمّد عبّاس ياغي والشابّ البعثيّ عاصم قانصوه على رأس المظاهرة.

مئات الآلاف الذين ضجّت بهم شوارع المدن اللبنانيّة راحوا يطالبون بدخول الحرب ويشهّرون بحكومة يعتبرونها متردّدة. لكنّ لوحظ أنّ المناطق المسيحيّة والدرزيّة خلت من أيّ مظاهرة. صحيح أنّ أفراداً مسيحيّين ودروزاً شوهدوا في مظاهرة بيروت الكبرى، لكنّ مناطقهم تجنّبت الإقدام على أيّ فعل احتجاجيّ.

رئيس الجموريّة شارل حلو استدعى إلى قصره قائد الجيش العماد إميل بستاني ووزير الأنباء ميشال إدّه. أخبرهما أنّ الوضع خطير جدّاً، وأنّه كان يرغب في أن يكون الرئيس كرامي معهم لكنّه يقود مظاهرة في طرابلس. أرفق رئيس الجمهوريّة ذلك بشيء من الهزء الممزوج بالأسف، مسجّلاً أنّ رئيس الحكومة الذي

يطالب بالمشاركة هو الذي يتنصّل من المشاركة في صنع القرار. لكنّ حلو ما لبث أن اقترح إرسال فرق عسكريّة رمزيّة إلى الجبهة "حفاظاً على الوحدة الوطنيّة". بستاني، بدوره، ردّ بشيء من الحدّة: "هذا يعني فناء الجيش واحتلال الأرض، يا فخامة الرئيس. لن يعود هناك وطن لكي نحافظ على وحدته. الإسرائيليّون يتصرّفون كالثور الهائج".

"لكنّ هذه إرادة شركائنا المسلمين في الوطن، وأنا كما تعلم ابن المدرسة الدستوريّة الميثاقيّة".

"يا فخامة الرئيس، غداً أو بعد غد يعرفون أنّ الحرب كانت كارثة على الدول العربيّة التي خاضتها ويتراجعون...".

"لكنْ، يا عزيزي، من الآن إلى أن ينقشع ذلك يكون لبنان كلّه قد احترق".

وزير الأنباء تدخّل فتحدّث عمّا أسماه بمكر اليهود وبالعداء المسيحيّ-اليهوديّ عبر التاريخ، ولم ينسَ، خالطاً عبّاس بدبّاس، أن يستشهد بعبارة أو عبارتين للقائدة الشيوعيّة روزا لوكسمبورغ. وإذ ذكّر مُجالسَيه بأنّه كان في شبابه يساريّاً، ضمن لهم أنّ الاتّحاد السوفياتيّ لن يتخلّى عن العرب عموماً وعن لبنان خصوصاً. "هذا حدسي"، كما أضاف.

شارل حلو نظر إلى ساعته وانتبه إلى حلول وقت الصلاة، فوعدهما بأن تكون صلاة قصيرة. هنا قال إدّه بين جدّ ومزاح: "في هذه الغضون، وبينما تصلّي يا

فخامة الرئيس، سأتسلّل إلى مطبخ القصر وأرى ما فيه من طيّبات"، فردّ الرئيس:

.Il y a un bon gâteau, Michel

لكنّ قائد الجيش ردعهما: "بلا مؤاخذة، كسّ أخت الكاتّو. علينا أن نتّخذ قراراً مصيريّاً الآن يا جماعة".

حلو وإدّه لم يتحرّكا بعد ذاك. ارتبكا وأحسّا بخجل أبقاهما حيث يجلسان. ثانيهما قال كأنّه يريد إنهاء الموضوع بسرعة: "أظنّ أنّ علينا دخول الحرب. وما دام أنّ الرئيس كرامي ليس معنا وما دمنا نستطيع التحدّث في ما بيننا بصراحة، فلأقلْ إنّ الأراضي التي قد يحتلّها اليهود هي أراضٍ يسكنها مسلمون. الخسارة ستقع عليهم. في الوقت نفسه، لن يستطيع أحد، إذا دخلنا الحرب، تعيير المسيحيّين بالخيانة. فلتكن الحرب إذاً".

شارل حلو سأل عن موقف الفاتيكان، فلم يكترث جليساه لسؤاله، أمّا بستاني، فبدأ بالتدريج يغيّر رأيه، مضيفاً حجّة أخرى إلى حجّة ميشال إدّه: "ربّما كانت للمشاركة في الحرب فائدة تعود على رجال الأعمال اللبنانيّين، والمسيحيّين منهم خصوصاً، في البلدان العربيّة". ثمّ أضاف بلهجة عامّيّة: "يالله منَعمل قرشين بهالقصّة".

في هذه الغضون، كان رئيس الجمهوريّة السابق كميل شمعون يعقد مؤتمراً صحافيّاً في "فندق صوفر

الكبير" بمشاركة رئيس حزب "الكتائب اللبنانيّة" بيار الجميّل وعميد "الكتلة الوطنيّة" ريمون إدّه. البيان الذي أصدره الثلاثة جاء فيه بالحرف: "إنّنا نحذّر السلطة اللبنانيّة من مغبّة الانخراط في الحرب التي ستدمّر البلد وجيشه وتُخضع أرضه وشعبه للاحتلال. إنّ عملاً كهذا يرقى إلى سويّة الخيانة الوطنيّة".

لكنْ ما إن انتشر خبر المؤتمر الصحافيّ في صوفر حتّى ظهرت هتافات جديدة جعل يردّدها متظاهرو بيروت وطرابلس، منها:

"يا شمعونْ يا عميلْ
يا صنيعةْ إسرائيل"
و
"يا شمعونْ يا عكروث
يالله ارحلْ عن بيروت".

وكانت هذه الهتافات تختلط بما يردّده الحزبيّون المتظاهرون، كهدير البعثيّين:

"يا فلَسطينْ جاكي جاكي
البعث العربي الاشتراكي".

وصراخ الحركيّين:

"دمْ حديدْ نارْ
وحدةْ تحرَرْ ثارْ".

الإسرائيليّون كانوا في وارد آخر. فهم ما إن علموا بقرار قائد الجيش إميل بستاني، حتّى أمروا قوّاتهم باحتلال بيروت فوراً. قوّاتهم البرّيّة راحت تتقدّم،

مغطّاةً بسلاحهم الجويّ، من دون أيّ مقاومة تُذكر. والحال أنّ المظاهرات الجنوبيّة في مساء الخامس من حزيران/ يونيو كانت تنقلب إلى شيء آخر: ففي صور، ولأنّ آل الخليل والمسيحيّين معروفون بالتعاطف مع شمعون، هاجم المتظاهرون أحياءهم وبدأوا بإحراقها، كذلك تردّد أنّ محازبين لرئيس مجلس النوّاب السابق كامل الأسعد أطلقوا النار على السيّد موسى الصدر الذي قدم إلى المدينة قبل سنوات من إيران ثمّ بنى فيها قاعدة سياسيّة تنافس زعامة الأسعد. أمّا في صيدا، فلم تحلْ مشاركة نزيه البزري في المظاهرة دون تعرّض مؤيّديه لهجمات من مُحازبي معروف سعد الذين اتّهموهم بالخيانة القوميّة. كذلك، وفي بعض قرى الجنوب، اشتبك مناصرون لآل عسيران مع مناصرين لآل الزين.

هكذا عبر الإسرائيليّون تلك المنطقة بهدوء وسلام، إذ كان السكّان مشغولين بأمور ونزاعات أخرى. وقد عُرف لاحقاً أنّ باقي المناطق اللبنانيّة لم تكن أفضل حالاً: ففي مظاهرة بيروت، تعرّض صائب سلام لضربة موسى أصابته في وجهه على يد شابّ من آل شهاب الدين معروف بعلاقاته الوثيقة بالسفارة المصريّة. وفي طرابلس، هوجمت بيوت مسيحيّة في حيّ الزاهريّة كما أطلق بعض أتباع رشيد كرامي النار على بيوت آل المقدّم. أمّا في البقاع، فتردّدت قصص متلاحقة عن محاصرة العشائر الشيعيّة لمدينة زحلة الكاثوليكيّة.

على أنّ وصول الإسرائيليّين إلى خلدة قلب بعض المعطيات. فهم أحكموا قبضتهم أيضاً على مدن مسيحيّة صغرى كمرجعيون وجزّين، تماماً كما أحكموها على المدن المسلمة، والأهمّ أنّهم بدأوا يتّجهون إلى بيروت نفسها، التي لن تعود عاصمة يتباهى بها مسيحيّو لبنان. هذا ما تدلّ عليه حركة جنودهم وطيرانهم، فضلاً عن تصريح وزير دفاعهم موشي دايان الذي جاء فيه: "سيعلم اللبنانيّون أنّ الثمن الذي سيدفعونه مقابل إعلانهم الحرب علينا غالٍ جدّاً. بيروت لن تبقى مدينة للسهر والاحتفالات الزاهية".

شارل حلو اتّصل بوزير خارجيّته جورج حكيم وطالبه بالحضور إلى القصر فوراً كي يبحثا في طلب تدخّل دوليّ.

"لا بدّ من الاتّصال بالفاتيكان يا جورج".

"الفاتيكان! لا يا فخامة الرئيس، الفاتيكان لا يحلّ ولا يربط. اتّصل بواشنطن. بالرئيس ليندون جونسون مباشرة".

ميشال إدّه عاود الاتّصال بالقصر سائلاً الرئيس أن يتّصل بموسكو التي لم تردّ على محاولاته المتكرّرة. استجابة واشنطن كانت فوريّةً لكنْ أكثر تعقيداً:

"الرئيس ليندون جونسون... أنا رئيس لبنان شارل حلو".

"ويلكوم مستر بريزيدانت".

"نحن يا فخامة الرئيس بلد مسالم اعتدى عليه الإسرائيليّون...".

"لكنّكم أعلنتم الحرب على إسرائيل...".

"بلدنا أموره معقّدة يا سيادة الرئيس. لقد كتب ميشال شيحا قبل ثلاثين سنة...".

"من؟".

"ميشال شيحا... أستاذي وأكبر مثقّفي بلدنا...

."F... Michel Chiha"

"دعنا نتحدّث في الجدّ يا فخامة الرئيس".

"حقّاً حقّاً... أتمنّى عليك مطالبة الإسرائيليّين بالانسحاب من لبنان. أعرف مدى تأثيركم في تلّ أبيب".

"لا أستطيع ذلك يا فخامة الرئيس بعد إعلانكم الحرب. قد أستطيع إقناعهم بعدم احتلال عاصمتكم بيروت".

"أرجوك أن تفعل. أعرف أنّهم سيستمعون لك، ولاحقاً نتحدّث في أمور المناطق المحتلّة الأخرى".

"سأرى ما الذي أستطيع فعله"، وأغلق جونسون الهاتف في وجه الرئيس اللبنانيّ.

وإذ أغلق حلو خطّه في المقابل، دخل رئيس الحكومة رشيد كرامي آتياً من طرابلس.

"أهلاً رشيد أفندي، كيف وصلت؟".

"لم آتِ بسيّارتي كي لا يتعرّف عليّ الإسرائيليّون الذين تحلّق طائراتهم في أجواء لبنان كلّها. لقد ركبت

بوسطة نقليّات الأحدب كأيّ راكب عاديّ كما حملتُ، إمعاناً في التضليل، صدراً من الكنافة الطرابلسيّة، وقلت لنفسي إنّني ما إن أصل إلى بيروت حتّى أرسله إلى ميشال [إدّه]".

"حسناً، ماذا نفعل الآن؟ لقد ورّطتنا في مظاهراتك يا رشيد. انظر ماذا جرى!".

"المهمّ يا فخامة الرئيس أن تضغط على المجتمع الدوليّ كي يسحب إسرائيل وينهي عدوانها علينا".

"لكنْ يا رشيد ألم يكن من الأجدى أن تمتنع عن التظاهر والمطالبة بدخول الحرب ضدّها؟".

"لقد ورّطنا عبد الناصر، كما ورّطه بعثيّو سوريّا. ومع أنّني لم أصدّق شيئاً ممّا قيل عن الانتصارات العربيّة لم يكن في وسعي الخروج عن الإجماع. أنت تعرف يا فخامة الرئيس أهميّة الإجماع عند أهل السنّة والجماعة، وتعرف كم أنّ القدس عزيزة عليهم".

"والقدس عزيزة عليّ أيضاً يا رشيد، وأنا أكره اليهود أكثر ممّا تكرهونهم أنتم المسلمين. لقد صلبوا السيّد المسيح...".

"عيسى عليه السلام لم يُصلب يا فخامة الرئيس".

"حسناً حسناً، فلنعد إلى الموضوع الأساسيّ. أنا لا أعتقد أنّ عملك كان عملاً مسؤولاً يا رشيد أفندي... لقد فعلتَ ما فعلتَه وصار عليّ أنا – المتّهم بأنّني لا أراعي المشاركة في السلطة مع رئيس الحكومة المسلم – أن أمحو آثار أفعالك، أهذا عدل يا رشيد؟".

في هذه اللحظة اتّصلت القيادة العسكريّة الأميركيّة في الشرق الأوسط برئيس الجمهوريّة، وكذلك بقائد الجيش إميل بستاني، وأبلغتهما بالنتيجة التي توصّل إليها الرئيس جونسون بعد اتّصالاته بالإسرائيليّين: "سوف تخضع المنطقة الممتدّة من خلدة شمالاً حتّى الناقورة جنوباً للاحتلال إلى أن يتمّ التوصّل إلى سلام لبنانيّ–إسرائيليّ كامل ونهائيّ".

شارل حلو أطرق وبدا كأنّه يبكي: "علينا أن نوقّع هذا السلام يا رشيد وإلّا ذهب لبنان إلى غير رجعة".

"لا يا فخامة الرئيس. هناك تعقيدات الوضع الإسلاميّ، فضلاً عن أنّنا مضطرّون إلى مشاورة الأخوة في مصر وسوريّا". وإذ صمت كرامي للحظة، فقد أضاف: "لا يعرف الإسرائيليّون أيّ مقاومة سيواجهونها. قد نكون خسرنا الأرض، لكنّنا كسبنا الكرامة يا فخامة الرئيس".

شارل حلو، الحزين والمكسور، اعتذر من رئيس حكومته قائلاً إنّه تأخّر كثيراً عن صلاته. لكنّه قبل أن يتركه سأله: "هل أعطيتَ صدر الكنافة كلّه لميشال؟ أنا أيضاً أحبّ الكنافة الطرابلسيّة يا رشيد"، وابتسم وغمز وذهب يصلّي.

اكتشاف وصيّة خالد بكداش التي ظُنَ أنّها ضاعت

عُثر أخيراً على وصيّة الزعيم الشيوعيّ السوريّ خالد بكداش الذي رحل عن عالمنا في 1995. في ما يلي ننشرها بعدما ساد الظنّ قبلاً بأنّها فُقدت، وفيها يُبدي بضعةَ آراء بسياسيّين وقادة عرفهم وعايشهم:

"سأبدأ بالقول إنّني، عبر هذه الحياة المديدة، كرهت وأحببت واحتقرت وحسدت أشخاصاً كثيرين، لكنّ أكثر مَن انتابتني حيالهم مشاعر حادّة هم شخصان كرهتهما وشخصان أحببتهما وشخصان احتقرتهما وشخصان حسدتهما.

فأنا كرهت خصوصاً جمال عبد الناصر وميخائيل غورباتشوف. ذاك أنّ حزبنا، في أواسط الخمسينيات، كان في ذروة صعوده. أنا انتُخبت نائباً عن دمشق في 1954 بـ17 ألف صوت، واستطعنا فرض صديق الحزب عفيف البزري رئيساً لأركان الجيش السوريّ. حزبنا كان ينمو ويتمدّد يوماً بعد يوم. صرنا موجودين بقوّة في المدن والأرياف، حتّى إنّ أكرم الحوراني، المتظاهر بأنّه حليفنا، راح يتخوّف من "سيطرة الشيوعيّين على سوريّا" ويحرّض علينا. هكذا جاؤونا بعبد الناصر كي يحكمنا.

كنت الوحيد في مجلس النوّاب السوريّ الذي لم يحضر جلسة المهزلة للتصديق على الوحدة مع مصر.

لقد تركت احتفالهم الأبله وركبت الطائرة التي أقلّتني إلى براغ وموسكو.

فجأة لم أعد أنا قائدَ الجماهير الكادحة. لم يعد هناك من يهتف: "خالدٌ يهدي خُطانا/ في طريق الخالدين". جمال عبد الناصر بات كلّ شيء. هو الزعيم. هو المعبود. حين جاء إلى دمشق احتشدت مئات الآلاف. حملوا سيّارته في مظاهرات استقباله. أحسست أنّه يأخذ منّي كلّ ما أملك وكلّ ما صنعت. حتّى مواصفاتي الشخصيّة، كرجل طويل ووسيم وأنيق، فضلاً عن خطابتي التي كانت تلهب الجماهير، استولى عليها هذا الضابط المصريّ الذي كان في عمق أعماقه فاشيّاً متأثّراً بموسوليني. لقد قُتل وعُذّب الشيوعيّون، المصريّون قبل السوريّين، في سجونه، ومع هذا استطاع أن يخدع رفاقنا السوفيات. وأنا لا أزال أجزم أنّه أميركيّ الهوى، لو لم تمتنع واشنطن عن تمويل سدّه العالي، لما جاء أصلاً إلينا.

الشخص الثاني الذي نافس عبد الناصر على كراهيتي كان ميخائيل غورباتشوف. من أين أتانا هذا الوغد؟ لا شكّ أنّ الإمبرياليّين دَسّوه في قيادة "الحزب الشيوعيّ" السوفياتيّ. العناصر اليهوديّة لا بدّ أنها لعبت دوراً في ذلك. هذا الرجل دمّر الاتّحاد السوفياتيّ. دمّر كلّ ما لدينا وبدّد كلّ ما صنعناه. كنت دائماً على يقين بأنّ القوّة الثوريّة الأولى في العالم هي الاتّحاد السوفياتيّ، تليها الأحزاب الشيوعيّة في أوروبا، ولاسيّما

الحزب الفرنسيّ. أمّا ما كنّا نسمّيه "حركة تحرّر وطنيّ"، فهذه لم أحملها مرّةً على محمل الجدّ. إنّهم خلائط قوميّة وقبليّة ودينيّة متخلّفة. غورباتشوف دمّر كلّ شيء، وكان "الحزب الشيوعيّ" الفرنسيّ قد تراجعت قوّته كثيراً بسبب تكالب القوى البورجوازيّة والمتآمرة عليه.

لقد أشعرني غورباتشوف بموت يسبق الموت الفعليّ. باللاجدوى والعطالة. أنا خالد بكداش، الذي كان يستقبلني كبار الرفاق في بلدان الكتلة الاشتراكيّة، ويستضيفونني في أبهى البيوت، وأحياناً القصور، صرت أصل إلى تلك البلدان كما يصل أيّ شخص آخر: أفتّش عن حقائبي في المطار ثمّ أحملها بيدي وأتوجّه إلى فندق شعبيّ رخيص.

يستحيل أن تغفر حركة الطبقة العاملة لغورباتشوف أفعاله. هذا الوغد استسلم للإمبرياليّة ودمّر الصرح الذي بناه لينين وستالين.

والحال أنّ هذين هما أكثر مَن أحببت في حياتي. فلاديمير إيليتش، صانع الثورة الكبرى الذي علّمنا كيف نبني الحزب الحديديّ. لقد برهن لينين بالتجربة الحيّة أنّ دور القائد في التاريخ أكبر قليلاً ممّا اعترفت به ماركسيّة ماركس وإنغلز. تخيّلوا لو أنّ قيادة الثورة كانت في يد شخص كتروتسكي أو شخص كبوخارين. الأوّل كان مشبوهاً لم يتخلّص من أصول يهوديّة كانت مشبوهة بدورها. يساريّته المتطرّفة وتعويله على عمّال

أوروبا كانا كفيلين بتدمير التجربة في مهدها. أمّا بوخارين اليمينيّ، فكان نفّذ ما نفّذه غورباتشوف قبل سبعين عاماً على الغورباتشوفيّة. كان سلَمَ الاتّحاد السوفياتيّ العظيم للبورجوازيّة والفلّاحين ومن ورائهم الإمبرياليّة.

وأمّا ستالين، أب الشعوب، فلا تمضي ليلة ألّا أراه في أحلامي. أراه واقفاً على شرفة الكرملين يبتسم واثقاً بحركة التاريخ فيما يهدي الانتصارات للشعوب والطبقة العاملة. ولأعترف الآن أنّني لم أطمح إلى شيء كطموحي أن أكون ستالين سوريّا. لقد ظهر حتّى في أوساط الشيوعيّين مَن عابوا عليّ عدم عقد مؤتمرات أو إجراء انتخابات حزبيّة. هؤلاء الأغبياء لا يعرفون أنّ وجود قائد تاريخيّ كخالد بكداش يُغني عن ذلك كلّه. فلماذا نبدّد جهودنا في المؤتمرات والانتخابات؟!. لقد قدت حزبنا على مدى 62 عاماً متواصلة فجعلته حزباً عظيماً ولم أرتكب خطأً واحداً. هؤلاء أنفسهم مَن عابوا على ستالين عنفه وقمعه، ولم ينتبهوا إلى أنّه جعل من الاشتراكيّة كتلة ضخمة من البلدان المتراصّة بعدما انحصرت طويلاً في بلد واحد. هؤلاء يتحدّثون كالليبيراليّين التافهين. إنّهم لم يقرأوا كتاب **الدولة والثورة** ويظنّون أنّ الاشتراكيّة إنّما تُبنى بتوزيع البقلاوة على البورجوازيّة.

لهذا شعرت، رغم التظاهر بالعكس، بالكثير من الاحتقار لنيكيتا خروتشوف. هو الذي عقد ذاك المؤتمر

العشرين البائس لنقد الستالينيّة وما سمّوه عبادة الشخصيّة. لقد قتل الرفيق بيريا الذي كان يُرهب أطفال البورجوازيّين والمتآمرين وهم في أسرّتهم. لكنّ خروتشوف، على رغم مكابراته، اضطرّ أن يعتمد الحلّ الستالينيّ يوم تآمرث هنغاريا بزعامة الخائن إيمري ناجي. لقد سحقهم كأنّهم ذباب. وخروتشوف، ذاك الفلّاح الأبله، هو من ورّطنا بعبد الناصر ومَن يشبهونه من قادة قوميّين وبورجوازيّين صغار. قال لنا: حلّوا أحزابكم واندمجوا في تنظيمات عبد الناصر! حدّثنا عن طرق لارأسماليّة إلى الاشتراكيّة وطالبَنا بأن ننسى الآلام التي نزلت بنا في سجونه. هذه هرطقات محضة اضطررتُ طويلاً إلى التظاهر بقبولها حرصاً على صلتي بالمعسكر الاشتراكيّ. فأنا أدرك منذ شبابي في دمشق أنّ هذه القوميّة العربيّة، التي كانت باستمرار تتذكّر أصولي الكرديّة وتذكّر بها، لا يمكن إلّا أن تكون شوفينيّة وبغيضة.

لكنّ الشخص الثاني الذي احتقرتُه لم يكن إلّا فرج الله الحلو. هو أيضاً فلّاح ساذج كان يتوسّم في نفسه قيادة الطبقة العاملة. كانت علاقته بالشيوعيّة كعلاقة رهبان الأديرة بالدين، لا يقارب النساء ولا يشرب الخمر ولا يغيّر ملابسه الداكنة المتقشّفة. يعيش في أيّ مكان مهما كان بسيطاً ويأكل أيّ شيء ممّا لا يؤكل. هذا زعيم ريفيّ يصلح، في أحسن أحواله، مختاراً لقريته

حصرايل. القائد ينبغي أن يفتن الجماهير ويسحرها أيضاً، لا أن يكون مجرّد مفتون بها أو مسحور.

فؤاد الشمالي كان نقابيّاً تدرّب في مصر على النضال العمّاليّ. مع هذا، استطعت بسهولة أن أزيحه، فكيف لا أزيح هذا الفلّاح البسيط؟

ذات مرّة تحذلق فرج الله وتحدّث عن "عبادة الشخصيّة" في الحزب. كان يقصدني، فقلتُ لنفسي: إنّ غداً لناظره قريب. رحت أترصّده إلى أن أدلى بموقفه القوميّ التافه محتجّاً على تقسيم فلسطين. كيف يمكن أن تُترك قيادة حزبنا لجاهل لا يعرف أنّ تأييد الموقف السوفياتيّ هو دائماً معيار الثوريّة والتقدّميّة؟ قررت حينذاك أن أحطّمه فكتبت "رسالة سالم" وقلت له: إمّا أن توقّعها كنقد ذاتيّ وإما أن تُطرد من الحزب. صار يبكي ويتوسّل: لا تطردوني! قلت: إذاً، وقّع على الرسالة، والرسالةُ كانت تمتلئ بإهانته وتحقيره واعتذاراته عن التطاول على قيادتي وعلى الموقف السوفياتيّ.

تأمّلوا: فلّاح حصرايل يتحدّى قرار الرفيق ستالين!

لكنّ غباءه كان أبعد من ذلك: في 1959، حين كان رفاقنا في سجون عبد الناصر وعبد الحميد السرّاج، وحزبنا مفككاً، طلبت منه أن يتوجّه إلى سوريّا لإعادة بناء الحزب. قلت في نفسي، وأنا أتجوّل بين موسكو وبراغ الرائعتين، إنّه سيعترض على تنفيذ قرار كهذا، قرارٍ قد يؤدّي إلى موته. لكنّ الأبله ذهب. ربّما فعل

خوفاً من أن يتسبّب الاعتراض في "رسالة سالم" ثانية. هناك في دمشق، حدث المتوقّع. اعتقلوه لحظة وصوله وقتلوه وذوّبوا جثّته بالأسيد. كلّنا كنّا نعلم ذلك ولا نقوله.

كم كان ساذجاً! بعض رفاقنا العراقيّين من صغار السنّ الذين لم يعرفوه غنّوا له وقالوا إنّ حزبنا هو "حزب فرج الله وفهد". لا يا رفاق، حزبنا هو حزب خالد... خالد وحده.

هل يُعدّ هذا من قبيل تضخّم الأنا عندي، كما قال ويقول البعض؟ أبداً. إنّه من قبيل الحرص على أن يكون القائد قائداً فعلاً، وأنا وحدي من بين هؤلاء مَن كان يتمتّع بالمواصفات القياديّة.

لهذا حسدت حافظ الأسد وياسر عرفات اللذين صارا قائدين، وهما لا يملكان شيئاً من هذه المواصفات. لم أكرههما، فهما لم يستحقّا كراهيتي، لكنّني حسدتهما.

حين كان حافظ الأسد يجلس على رأس الطاولة التي تجتمع حولها "الجبهة الوطنيّة التقدّميّة"، كنت أقول لنفسي إنّه يجلس على الكرسيّ الذي ينبغي أن يكون لي. هذا الضابط إنّما يقتصر كلّ ذكائه على تدبير المؤامرات والمكائد، وأنا مع احترامي للمؤامرات والمكائد التي قد يحتاجها العمل الثوريّ، أميّز بين نوعين منها: النوع المحصّن بتعاليم الماديّة التاريخيّة والماديّة الجدليّة وبخبرة الطبقة العاملة، والنوع الذي لا

يملك في جعبته إلّا الترّهات البورجوازيّة الصغيرة، الخطابيّة والإنشائيّة، لميشال عفلق وزكي الأرسوزي.

لقد كان الرجل مهذّباً معي، وأنا كنت مضطرّاً أن أبدو مهذّباً معه لمعرفتي بالثمن الباهظ لأيّ سلوك معاكس، فضلاً عن تشجيعه على المضيّ في التحالف مع الاتّحاد السوفياتيّ. لكنّه لم يكفّ عن إضعافي وإضعاف حزبنا وكان يتلذّذ بذلك. لقد قبل أن يضمّ إلى "الجبهة" جماعة ذاك التافه يوسف فيصل بوصفها حزباً شيوعيّاً آخر! وهو كان مستعدّاً أن يضمّ جماعة قريبه الذي يفوقه تفاهة، رياض الترك، كحزب شيوعيّ ثالث، لكنّ الترك هو من عاداه. ذاك الترك، الذي كشفه العلماء السوفيات مبكراً بوصفه قوميّاً في زيّ شيوعيّ، رأى قيادة البروليتاريا العربيّة معقودة لـ... ياسر عرفات!

وأنا، في الحقيقة، أخجل بالقول إنّني حسدت تلك الكميّة الضئيلة المسمّاة عرفات. مع ذلك حسدته لأنّ قضيّته الفلسطينيّة جعلت منه زعامة عالميّة. لقد سرق كنيتي التاريخيّة: أبو عمّار. صار هو، لا أنا، أبا عمّار.

وأنا، من البداية، لم أحمل هذه الثورة الفلسطينيّة وقضيّتها على محمل الجدّ: ثورة مخيّماتٍ، أي جماعات غير منتجة وبلا طبقات! ثورة تقوم على النفط الخليجيّ الرجعيّ وعلى عواطف نوستالجيّة إلى قطعة أرض أقيم فوقها مجتمع كامل أكثر تقدّماً بكثير. وهذا فضلاً عن الشخصيّة المقزّزة والمداهنة لعرفات. لقد صنعنا في الأحزاب الشيوعيّة منظّمة "الأنصار" وطلبنا

من "جيش التحرير الفلسطينيّ" أن يدرّبها. لم نقاتل، لكنّنا تظاهرنا بأنّنا سنقاتل لأن جماهير الأعاريب يحبّون ذلك. تأمّلوا: لقد اضطررنا إلى كلّ هذا التظاهر بما لا يشبهنا من أجل أن نرضي مَن؟ السيّد ياسر عرفات!. هل هذا كافٍ لتوضيح السبب الذي يقود شخصاً مثلي لأن يحسد شخصاً مثله؟

على أنّني لا بدّ، في نصّ وداعيّ كهذا، أن أتحدّث عن ثلاثة رفاق هم من أهل بيتي وأقرب الناس إليّ.

أوّلهم، وصال فرحة، زوجتي منذ 1951. لقد عشنا معاً في السرّاء والضرّاء، وكانت دائماً وفيّة لي وفاءً لم أستطع أن أبادلها بمثله. وصال تقمّصت أفكاري كلّها وصارت أقرب إليها منّي. إنّها تعرف سلفاً كيف سيكون ردّي على موقف من المواقف، وكيف سيكون تعليقي على حدث من الأحداث. ومع أنّ حزبنا ضدّ التوريث الإقطاعيّ، أعتقد أنّ ضرورة الحفاظ على خطّي وتراثي تستدعي تولّي وصال للأمانة العامّة من بعدي.

لماذا وصال وليس ابني عمّار أو صهري قدري؟

عمّار يملك الكثير من صفات وصال، لكنّ مشكلته أنّه، وهنا قد تستغربون، يبالغ في تناول السمن الحمويّ. هذا يجعله بطيئاً في حركته الجسمانيّة وفي تفكيره أيضاً. حتّى لفظه بطيء كأنّ بعض ذاك السمن الحمويّ قد علق في حنجرته. لقد قلت له ألف مرّة أن يكفّ عن الإكثار منه، وضربت له المثل بنفسي: فأنا أيضاً كنت أحبّ السمن الحمويّ كثيراً، لكنّني في شبابي الأوّل واجهت

هذا الخيار الصعب وكان عليّ أن أحسمه سريعاً: إمّا سمن حمويّ وإمّا قيادة الطبقة العاملة، واخترتُ الثانية بالطبع. إنّ على عمّار أيضاً أن يختار.

أمّا قدري، فأنا بصراحة لا أثق به. هو أيضاً يشارك عمّار بطئه وضعف جاذبيّته، لكنّني أشتبه بأنّه لم يقترن بابنتي سلام إلّا طمعاً بوراثتي السياسيّة. وهناك أمر آخر يدعو إلى الحذر: صحيح أنّي كنت أسهّل بعض الصفقات الماليّة لوالده فؤاد جميل كي يستفيد الحزب من عائداتها. أمّا نجله قدري، فمنذ توجّهه إلى الدراسة في موسكو، وهو يقيم علاقات ماليّة غريبة تعود منافعها عليه أوّلاً وأخيراً. لقد استمرّ في هذه النشاطات بعد سقوط الاتّحاد السوفياتيّ، فتعامل مع المافيات التي ازدهرت في عهد يلتسن، وباع واشترى وهرّب كلّ ما يمكن أن تقع عليه اليد. هذا الرجل لا يصلح أصلاً لأن يقود حزبنا، مع أنّ طموحه لابتلاع الحزب يكاد يكون في حجم الحزب نفسه.

إنّ على الرفاق، وعلى رأسهم الرفيقة وصال، أن يحذروا الانتهازيّين، وأن يحافظوا على خطّ خالد بكداش، خطّ لينين وستالين العظيمين.

عاشت ذكرى الاتّحاد السوفياتيّ العظيم،

عاشت الطبقة العاملة العالميّة،

عاش "الحزب الشيوعيّ السوريّ".

محضر الاجتماع السرّيّ للقادة الفلسطينيّين بعد حرب الأردن

لم يكن الاجتماع الذي عُقد بين القادة الفلسطينيّين يوم 10 كانون الثاني/ يناير 1971، وأحيط بالكتمان، اجتماعاً عاديّاً. فالهزيمة في الأردن كانت لا تزال ثقيلة الوطأة، فيما الإعداد يجري لانتقال عسكريّ صعب إلى لبنان.

ياسر عرفات ألحّ على أن يتمّ الاجتماع في أحد فنادق ليماسول القبرصيّة لتجنّب الضغط الذي قد تمارسه دمشق. الحاضرون كان معظمهم من "فتح"، وهم: ياسر عرفات (أبو عمّار) وخليل الوزير (أبو جهاد) وصلاح خلف (أبو إياد) وفاروق القدّومي (أبو اللطف) وخالد الحسن (أبو السعيد) ومحمود عبّاس (أبو مازن). كذلك حضر عن "الجبهة الشعبيّة" جورج حبش، وعن "الجبهة الديموقراطيّة" نايف حواتمة، وعن "القيادة العامّة" أحمد جبريل، وعن "الصاعقة" زهير محسن.

أبو عمّار قبّل الجميع فرداً فرداً بشيء من الحماسة والإصرار. عدد القبلات التي طبعها على الوجه الواحد كان يتراوح بين ستّ وتسع، وهو العدد الذي حظي به، لسبب ما، جورج حبش.

القائد استهلّ اللقاء قائلاً:

"علينا يا إخوان أن نوجّه نداءً إلى الأمّة العربيّة والإسلاميّة...". لكنّ خليل الوزير، المعروف بحبّه للدقّة،

سريعاً ما قاطعه فيما كان عبّاس وحبش وحواتمة يهزّون رؤوسهم موافقين على كلامه:

"يا أخ أبو عمّار، إمّا أن نوجّه النداء إلى الأمّة العربيّة وإمّا إلى الأمّة الإسلاميّة، فالفارق بينهما بمئات الملايين...".

"ما لك يا أبو جهاد، إحنا بنكتب رسائل جامعيّة؟ ينبغي أن نناشد الجماهير. أن نناشد الجماهير. أن نناشد الجماهير... الموضوع هو فلسطين. هو القدس. هو المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين. إلى هناك سأذهب... شهيداً شهيداً شهيداً". هنا نظر عرفات إلى حبش وحواتمة وقال لهما: "أنا لا أنسى العهدة العُمريّة أبداً. روحي فدى العهدة العُمريّة. المقدّسات المسيحيّة تهمّني كمقدّسات المسلمين". لكنْ يبدو أنّ زعيمي الجبهتين الشعبيّة والديموقراطيّة لم يتأثّرا بهذا الكلام الذي يخاطبهما كمسيحيّين.

بعد لحظة صمت أضاف أبو عمّار: "حسناً أيّها الإخوة... قبل أيّ شيء، ولأنّنا أمام منعطف خطير ومصيريّ من حياة ثورتنا، أحبّ أن أسمع من كلّ واحد منكم رأيه. بعد ذلك نخرج على العالم بإستراتيجيّة كبرى للعمل الثوريّ الفلسطينيّ".

حواتمة: "يا أخ أبو عمّار... إذا عدنا إلى تجربة كوميونة باريس...".

"بتقول إيه يا نايف، أنت بتهزّر ولّا إيه! كوميونة ومش كوميونة، وباريس ومش باريس. إيه دا يا نايف؟

إحنا يا أخي بنتكلّم جدّ. بعض أبطالنا ما زالوا يقاومون في جرش وعجلون. يقاومون بالدم. يقاومون بالروح. يقاومون بالإيمان. وبتقولّي كوميونة باريس؟! ما لنا ومال كوميونة باريس...".

محسن: "الرفيق نايف يحبّ دائماً أن يأخذنا بعيداً في التاريخ والجغرافيا. أظنّ أنّنا بمجرّد مجيئنا للاجتماع في قبرص ابتعدنا كثيراً، وأكثر ممّا يجب. هل ضاقت بنا يا رفاق ساحات الوطن العربيّ؟ أما كان الأفضل، يا أخ أبو عمّار، أن نعقد اجتماعنا هذا في دمشق، قلب العروبة النابض؟".

"بتقول إيه يا زهير؟! ضاقت! طبعاً ضاقت بنا ساحات الوطن العربيّ. في الأردن أنتَ شفت حصل إيه. دبحونا يا زهير. دبحونا. دبحونا. دبحونا. في لبنان، الجيش والانعزاليّين المسيحيّين مش عايزينّا نتمركز عسكريّاً في بلدهم ونِدِّيهم جزء من شرف تحرير فلسطين. الجيش العراقيّ ساب الجيش الأردنيّ يتقدّم نحو مواقعنا وما حرّكْشِ ساكن. مش مِلاحظين يا إخوان أنّو عبد الوهاب الكيّالي، أمين عامّ "جبهة التحرير العربيّة" بتاع العراق، مش معانا. لازم مشغول قوي بالكتابة عن قرى فلسطين وآبار المياه فيها. وبعدين، يا زهير، عايزنا نجتمع في دمشق في ظلّ حاكمها الجِديد... اسمو إيه؟ حافظ الأسد؟ الأسد دا، يا زهير، لم يوفّر غطاءً جويّاً للقوّات السوريّة اللي دخلت

الأردن للقتال إلى جانبنا. دا الأسد جاسوس، كان على طول بينسّق مع الأميركان".

(زهير محسن تصرَف كأنّه يحكّ أسته ولا يسمع تماماً ما يقوله عرفات).

جبريل: "هذا الكلام غير مقبول يا أخ أبو عمّار. سوريّا كانت دائماً قاعدة إسناد لعملنا الثوريّ...".

القدّومي: "ربّما انفعل الأخ أبو عمّار قليلاً بسبب الظرف الراهن، وربّما خانه التعبير عمّا أراد. إنّه بالتأكيد يكنّ الاحترام والتقدير للرئيس الأسد، لكنّ علاقات الثوريّين تحتمل العتب وخلافات الرأي أحياناً".

(يميل عرفات باتّجاه خلَف الجالس إلى يمينه ويقول: "إحنا بنجتمع مع جواسيس الأسد يا أبو إياد. دول أعداء الشعب الفلسطينيّ").

خلف: "أعتقد أنّ المسألة الأولى على جدول أعمالنا ينبغي أن تكون الردّ على النظام الأردنيّ العميل. على جيشه المرتزق. ينبغي أن نثأر لشهدائنا. هذا النظام لا يفهم إلا لغة الثأر...".

حبش: "صحيح ما تقوله يا أخ أبو إياد. أنا سأطلب من الرفيق وديع حدّاد...".

"أرجوك يا حكيم ما تطلبش حاجة من وديع حدّاد. أبوس إيدك بلاش وديع حدّاد. الطيّارات اللي خطفها ودّتنا في داهيه".

حبش: "يا أخ أبو عمّار. أظنّ، على العكس تماماً، إنّ الخطأ الذي ارتكبناه هو أنّنا لم نخطف ما يكفي من

طائرات. الرجعيّة لا تفهم إلّا لغة القوّة..."

"الله الله. بتقول إيه؟ يا خبر اسود. لو خطفنا طيّارات أكتر ما كانشِ في حدّ منّا على قيد الحياة. وديع بيخطف طيّارات، ونايف بيقول "كلّ السلطة للمقاومة"، والملك حسين بيقصف الشعب الفلسطينيّ في المخيّمات"... (ومالَ في هذه اللحظة باتّجاه الوزير الجالس إلى يساره وهمس في أذنه: "سمّيناه حكيم الثورة، دا عبيط الثورة يا أبو جهاد. مُخّو زيّ الباطون المسلّح").

خلف: "نعود إلى الثأر"...

حبش (ضاحكاً بشيء من التباهي بالأسبقيّة): "الثأر شعارنا منذ أنشأنا "حركة القوميّين العرب" يا أخ أبو إياد".

خلف: "أقصد الثأر من الملك حسين قبل الثأر من اليهود. ننشئ تنظيماً نسمّيه أيلول الأسود مثلاً..." (يميل أبو عمّار ثانية صوب أبو إياد ويهمس: "ما تكشِفْشِ أوراقنا قدّام زهير وجبريل. دول جواسيس يا صلاح!").

الحسن: "يا إخوان، لا نستطيع أن نقرّر مسائل مهمّة كهذه دون أن نعرف رأي الإخوة في الخليج، وخصوصاً الكويت. إنّهم من يمدّ الثورة بالمال، ومن حقّهم أن يشاركونا الرأي. ينبغي أن نستشيرهم وننسّق معهم...".

"طبعاً طبعاً يا أبو السعيد. إزاي أنسى الكويت والخليج؟ في الكويت أسّسنا حركة "فتح". الله الله...

أنتو فاكرين يا إخوان. لازم أخوك هاني يروح الخليج. هاني يسمع رأيهم ويقول لهم اللي هُمّا عايزينو ويجيب شويّة فلوس كمان...".

عبّاس: "أذهبُ أنا أيضاً إلى الخليج. دائماً اثنان أفضل من واحد".

محسن: "دمشق بعيدة والكويت قريبة! أليس كذلك يا رفاق؟! هذه بالفعل نقطة سوداء في عملنا الثوريّ".

جبريل، الذي كان يهزّ رأسه استياءً ممّا قاله عرفات، أكمل من حيث توقّف محسن:

"أنا شخصيّاً لديّ ملء الثقة بالقيادة السوريّة، وأعتقد أنّها خير مَن يفاوض الخليجيّين لما فيه مصلحة الثورة الفلسطينيّة والأمّة العربيّة جمعاء".

يُسمع ضحك في أطراف القاعة يقطعه حبش برصانته المعهودة: "أظنّ، يا رفاق، أنّ هذه العلاقة بالخليج تضرّ بالثورة. الأنظمة هناك إقطاعيّة متحالفة موضوعيّاً مع الإمبرياليّة التي هي بدورها متحالفة موضوعيّاً مع الصهيونيّة. إنّ قضيّة شعبنا وأمّتنا..".

هنا مال عرفات مجدّداً نحو خلف وقال له بصوت خفيض: "دا أكل خرا خالص. موضوعيّاً وموضوعيّاً وموضوعيّاً... ونايف بعد شويّة حيردّ: ذاتيّاً وذاتيّاً وذاتيّاً وحتميّة تاريخيّة ومش عارف إيه"، ثمّ نظر إلى ساعته بضجر وقال بشيء من التوتّر والعصبيّة: "يا حكيم، ليه ما تطلع الطاولة وتتكلّم. دا اللي بتقولو خطاب جماهيريّ... والله مش معقول! أنا أجيب

الفلوس من الخليج وأدّيك وأدّي نايف الحصّة المخصّصة لكم ولجبهاتكم. بعدين تيجي أنت ونايف وتقولو أنا رجعيّ ويمينيّ واستسلاميّ وتصفويّ ومش عارف إيه، وأنّو أنتو عايزينّي أقطع علاقتي بالخليج. إزّاي يا جورج أجيب فلوس؟ إزّاي أطعَمْكو يعني؟ بتقولو أبو عمّار ساوم وأبو عمّار فرّط بالقضيّة. أنا مستعدّ لكلّ شيء في سبيل القضيّة. جمال عبد الناصر، الله يغمّقلو، لمّا كنت أشوفو كنت أتظاهر بأنّي ناصريّ. أنا مانساش إزّاي حكم شعبنا في غزّة حكم بوليسي، وإزّاي اخترع أحمد الشقيري ليصادر قرار الشعب الفلسطينيّ، وإزّاي سمح لحسين يدبحنا بعدِ ما وافق على 242 ومشروع روجرز. مع هذا، كنتِ أبوسو على خدّو وعلى كتفو وعلى راسو. أنتَ تعرف: هو أطول منّي بكتير، كنتِ أنطّ في العالي حتّى أبوسو على راسو".

حواتمة: "المهمّ يا أخ أبو عمّار أنّ نحلّل سلوك عبد الناصر. إنّه تعبير عن تذبذب البورجوازيّة الصغيرة. هذه الطبقة سقطت تاريخيّاً، وآن للبروليتاريا العربيّة أن تقود حركة النضال...".

"والله يا نايف مش فاهم عليك. أنا بقول لازم نعتمد على كلّ اللي ممكن يساعدونا. بورجوازيّة صغيرة، بورجوازيّة كبيرة، بلوتاريا ما بلوتارياش كلّو ماشي".

حواتمة: "ليكن الاعتماد أوّلاً على جماهيرنا الشعبيّة يا أخ أبو عمّار، لا على البورجوازيّين أكانوا صغاراً أم

كباراً، ولا على الإقطاع في الخليج".

"جماهيرك الشعبيّة مِفَلّسَة يا نايف. هي المعتَمْدَه علينا. إحنا بنشغّلها بالفلوس اللي نجيبها من الخليج: نفتح لها مؤسّسات ونوفّر لها الشغل والوظايف. إنت بقى عايز تحرّر فلسطين ولّا إيه؟". وفجأة تشنّج أبو عمّار وتوتّر وحملقت عيناه: "خلاص بقى يا جماعة. خلاص ثَريقة اليساريّين بِتوعكم عالقائد العامّ. كلمة بورجوازيّة أو كوميونة أو بلوتاريا أو استشهاد بكتاب للينين، رحمات الله عليه، دا ما يعنيش أنكو أكتر وطنيّة من غيركو". وصمت قليلاً، ثمّ بجرعة أعلى من الغضب أضاف: "أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا/ متى أضع العمامة تعرفوني... هذا أعظم بيت شعر في التاريخ. احفظوه جيّداً". لكنْ فجأة انفرجت أساريره وضحك ضحكة عريضة بدأ بعدها يُطيّر القُبل الهوائيّة بكفّه نحو حواتمة وحبش الذي بادله ابتسامة صفراء ووجد الفرصة سانحة كي يعاود التدخّل: "هناك يا أخ أبو عمّار عناصر ثوريّة تؤيّد كفاحنا في كلّ مكان. هناك شبّان ألمان ويابانيّون مستعدّون أن يستشهدوا فدى قضيّتنا لأنّها تناهض الإمبرياليّة. لماذا نلجأ إلى الرجعيّين والبورجوازيّين؟...".

"يا عزيزي جورج، أنا مش عايز أناهض حدّ، ومش عايز شبّان ألمان ويابانيّين يستشهدو فدى قضيّتنا. إحنا عايزين الأميركان يكلّمونا، ولّا إيه يا محمود؟".

وإذ سطع العبوس على وجهي حبش وحواتمة مجدّداً، تحدّث عبّاس: "لا بدّ من الواقعيّة الثوريّة وأخذ توازنات القوى على الأرض بعين الاعتبار. نحن نحظى بتأييد السوفيات ودول الخليج، وهذا مهمّ جدّاً. السوفيات يعطوننا السلاح والغطاء الدوليّ، والخليج يقدّم المال. إذا استطعنا أن نفتح حواراً مع أميركا فهذا سيكون خطوة كبرى إلى الأمام".

حبش (بغضب واضح): "لماذا إذاً لا نفتح حواراً مع إسرائيل؟".

"لسبب بسيط يا حكيم، هو أنّ إسرائيل لا تحاورنا".

وإذ راح محسن وجبريل يرسلان أصواتاً متذمّرة ومستاءة، بدا كأنّ عرفات قرّر أن يصفّي بعض الحسابات:

"زهير محسن وأحمد جبريل عايزين حافظ الأسد هو اللي يفتح الحوار مع الأميركان باسمنا ونيابةً عنّا، مش كده؟".

جبريل: "لا يا أخ أبو عمّار، نحن...". هنا تدخّل الوزير الذي أحسّ أنّ الاجتماع بات يراوح في مكانه وأنّه مهدّد بالانفجار:

"تعرفون يا إخوان أنّني رجل عمل وممارسة، ولا أجيد الكلام كثيراً. نحن الآن لا حاجة بنا إلى هذه النقاشات. الموضوع المطروح أمامنا من شقّين: الثأر من النظام الأردنيّ، وهذا ما سوف يتولّاه الأخ أبو إياد، وتنظيم الانتقال إلى لبنان، وهذا ما أتولّاه أنا. لقد بدأث

اتّصالاتي مع قوى لبنانيّة مؤثّرة، مع شخصيّات ومع أحزاب، وهناك شبّان لبنانيّون كثيرون يودّون أن ينضمّوا إلى "فتح" وإلى باقي الحركات الفلسطينيّة المسلّحة. هؤلاء اللبنانيّون المتحمّسون يمكنهم أن يشقّوا لنا الطريق إلى قلب بلدهم، إلى مدنه وقراه وعائلاته وطوائفه. ووجودنا في لبنان سيضاعف الاهتمام الأميركيّ والغربيّ بالحوار معنا بسبب علاقات لبنان الخاصّة بالغرب. هؤلاء الشبّان الذين يقفون معنا بينهم ماويّون وبينهم إسلاميّون وقوميّون...".

"ماشي يا أبو جهاد. ماويّون. صينيّون. إسلاميّون. بوذيّون... كلّو ماشي. المهمّ النتائج".

تدخّل أبو إياد: "لا بدّ من رشّ بعض الفلوس بالطبع".

"لا يا أخ أبو إياد"، أجابه أبو جهاد، "القطاعات التي تعمل معك تطلب الفلوس كي تؤيّدنا، وأنا أتفهّم ذلك، لكنّك لا تعرف هؤلاء الشبّان. إنّهم متحمّسون لفلسطين ومستعدّون أن يدفعوا من جيوبهم ولا يمانعون حتّى في تدمير بلدهم".

محسن: "أرأيت يا أخ أبو عمّار. نحن، في "الصاعقة"، بفضل سوريّا، سبقنا الجميع إلى لبنان. صرنا، منذ 68، قوّة عسكريّة جدّيّة في العرقوب...". لكنّ عرفات لم يترك محسن يكمل كلامه. لقد بدا على وجهه استياء ما لبث أن ارتفع إلى غضب حيال عبارته التي رأى فيها تباهياً عليه:

"صحيح يا زهير. انتو سبقتونا. برافو. لبنان بلد غنيّ، مليان مصارف وكازينوات ودولارات، والأغنِيا بيوتهن مليانة سجّاد عجمي من أفخر الأنواع".

ساد صمت ثقيل محرج للجميع. أبو عمّار نظر إلى ساعته مرّة أخرى، ووقف مهنئاً الآخرين بالتوصّل إلى صياغة ما سمّاه "إستراتيجيّة ثوريّة جبّارة لتحرير فلسطين". بعد ذاك، وفيما الباقون حائرون مُحيَّرون، رفع يده اليمنى ورسم بإصبعيه السبّابة والوسطى شارة النصر، وراح يهتف: "ثورة ثورة حتّى النصر، ثورة ثورة حتّى النصر، ثورة ثورة حتّى النصر، ثورة ثورة حتّى النصر، ثورة ثورة...".

انتصار حمدين صبّاحي على عبد الفتّاح السيسي

شاشة التلفزيون المصريّ انشطرت نصفين في سهرة ذاك اليوم الطويل، 29 أيّار/ مايو 2014.

بفارق 412 صوتاً فقط، فاز المرشّح الناصريّ حمدين صبّاحي على مرشّح القوّات المسلّحة عبد الفتّاح السيسي. النتيجة جاءت مفاجأةً صاعقة لم يتوقّعها أحد في مصر ولا خارجها: السيسي رسب في هذه المنافسة الديموقراطيّة بعدما قدّم نفسه وقدّمه الإعلام الرسميّ، منذ انقلابه على أوّل رئيس منتخب في تاريخ مصر، بوصفه المخلّص.

نصف الشاشة الذي أعطي للمرشّح المهزوم بدا بالغ الكآبة لكنّه أيضاً كان مثيراً للهزء والسخرية. عبد الفتّاح السيسي، وقد فقد كلّ سيطرة على نفسه، غادر المكتب الذي كان مقرّه الرئيسيّ لإدارة حملته الانتخابيّة، ونزل إلى الشارع وهو يتمايل بقوّة إلى اليمين وإلى اليسار كأنّه في حالة سُكر شديد. على درج المبنى، نزع سترته وقميصه بكثير من الغضب ورماهما أرضاً قبل أن يتكوّم بجثّته على حافّة الرصيف. لقد بدا منهاراً تماماً، يلطم وجهه، وبين وقت وآخر يبكي من دون أن يجد محرمة يمسح بها دموعه، إذ المحرمة بقيت في سترته المرميّة على الدرج.

الذين كانوا يمرّون به لم يفهموا: هل هو السيسي فعلاً؟ بطل "30 يونيو" وقائد الجيش السابق الذي

كانت التوقّعات كلّها تشير إلى أنّه سيكون رئيس جمهوريّتهم؟ "هذا غير معقول، أكاد لا أصدّق عينيّ"، قال أحد المارّة. "الراجل دا تجنّن"، قال آخر. محلّل سياسيّ كان قد جزم أنّ المؤسّسة العسكريّة لن تتدخّل في نتائج الانتخابات ولن تلجأ إلى الوسيلة الانقلابيّة كائنة ما كانت النتيجة.

مع اقتراب الكاميرا من المرشّح المهزوم، أمكن التقاط بعض العبارات المتقطّعة التي كان يردّدها بصوت تكاد تخنقه الآهات والبكاء: "والله أنا بَحبّ مصر. أنا بَعبَد مصر. أحلف بِسَماها وبترابها. أنا وصُغيّر طلبت من ربّنا يدّيني مية مليون دولار أوزّعها على الغلابة الطيّبين. مية مليون جنيه ما ينفعش. ربّنا قال لي: حادّيك يا عبد الفتّاح (...) الحمد لله أمّي ماتت وما شافتشي الحال اللّنا فيها اليوم. أقول إيه لمراتي. لولادي (...) أنا عملتِ إيه يا ربّ؟! عملتِ إيه؟ (...) لازم يكون ربّنا مع "الإخوان المسلمين". مع محمّد مرسي. دي إرادة ربّنا. لازم ربّنا سبحانه وتعالى انتَقم منّي عشان الانقلاب بتاعي على مرسي. مرسي هوّا اللي رفّعني في الجيش. سامحني يا ربّ. لازم أتوب واكفّر عن ذنوبي وانضمّ للإخوان. عملتِ إيه يا عبد الفتّاح في رابعة، عملتِ إيه؟ (صوت بكاء عنيف) (...) لازم أحجّ تاني إلى مكّة المكرّمة. حجّ واحد ما ينفعش..."

ومن دون تمهيد، ظهر ضابط كبير يُرجّح أنّه قريب من السيسي. إنّه سامي عنان الذي ركّزت الكاميرا على

وجهه الغاضب: "دا عيب اللي بتعملو بنفسك يا عبد الفتاّح. البسْ هدومك يا أخي. خلاص بُكا ونواح. احتراماً لمؤسّسة الجيش اللي انتا جيت منها. احتراماً لعائلتك. لشخصك. خلاص بقى..". ومضى عنان يوبّخه ويكرّر ما يقوله له على نحو بات مضجراً، فيما بقي السيسي جالساً مكانه لا يتزحزح، يهزّ رأسه يمنة ويسرة كما يفعل أهل الفقيد في جنازة. حضر رجل آخر عرّف عن نفسه: "أنا موسى مصطفى موسى. أنا مواطن مصريّ لا أتحمّل هذا المشهد". أحاط بالسيسي وبدا أقوى منه جسديّاً ثمّ حمله على ظهره بعيداً عن الكاميرا كأنّه يُخفي فضيحة.

النصف الثاني من شاشة التلفزيون كان ينقل الأجواء الاحتفاليّة للمرشّح الفائز حمدين صبّاحي. القطب الناصريّ، الذي سبق أن ترشّح للمنصب نفسه في 2009 و2012، من دون أيّ أمل بالفوز، حقّق أمنيته هذه المرّة. إنّه يستقبل الوفود التي تحمل صوره وصور جمال عبد الناصر. كان حمدين يبتسم تلك البسمة الكيماويّة المدروسة التي بدا كأنّه قضى العمر كلّه وهو ينظّمها. شكر "الجماهير" وتحدّث عن ثورتي "يناير" و"يونيو" وعن الديموقراطيّة. قال أيضاً إنّ مصر تجاوزت محنة العهد التسلّطيّ الذي بدأ مع أنور السادات ووجد تتويجه مع حسني مبارك، كما تجاوزت محنة العهد الإخوانيّ القصير. لكنّه فجأة ظنّ أنّ الكاميرا ابتعدت عنه، وفي هذه اللحظة بدأ يحدث ما لم

يكن في الحسبان. ففي الغرفة الجانبيّة التي جمعته بصديق عمره، الناصريّ الآخر أمين اسكندر، الذي يُرجّح أن يسمّيه مستشاراً قوميّاً له، سُمع هذا الحوار الذي لا بدّ أن يُحرج رئيس مصر الجديد:

– إزاي انتخبوني يا أمين؟ إزاي؟

– الشعب المصريّ بيكره العسكر يا حمدين.

– سيادة الرئيس من فضلك.

– الله! أنت مستعجل قوي. واخدها جدّ قوي. لسه واكلين فول وكشري مع بعض... ما لك يا أخي؟

– المسألة يا أمين لا تتعلّق بي. إنّها تتعلّق بكرامة مصر. وبعدين، إزّاي بتقول أنّو المصريّين بيكرهو العسكر. أمّال! يعني بيكرهو عبد الناصر!

– أنا بقصد يعني همّا بيكرهو عسكريّة عبد الناصر ويحبّوا قوميّة عبد الناصر.

– تمام. أنا قوميّ ومش عسكريّ. تمام يعني. إيه رأيك نرَكّز في كلامنا عالقوميّة. الوحدة مع سوريا. حرب اليمن. تحرير فلسطين...

– ما ينفعش. الوحدة مع سوريا باظت بعد تلات سنين. حرب اليمن كانت كارثة، وحرب 67 ما حررتشِ فلسطين، جابت الإسرائيليّين اللي احتلّوا سينا. لازم نقدّم القوميّة العربيّة بحلّة جديدة: كرامة وارفع رأسك يا أخي والبتاع دا... لازم كمان نحكي في الاقتصاد. الشبيبة عايزة تشتَغل... القوميّة اليوم هي اقتصاد أوّلاً. انظر إلى حالة الصين: وعي قوميّ ونهوض اقتصاديّ...

– نِجيب مثلاً الدكتور خير الدين حسيب ونِدّيه منصب رفيع في الدولة لنشر الوعي القوميّ وتوجيه الشبيبة. دا راجل قوميّ عظيم وهو أيضاً اقتصاديّ وإداريّ ومنظّم بارع...

– دا كتير قوي يا حمدين.

– (بشيء من الغضب): سيادة الرئيس أرجوك.

– (بالفصحى) حسناً، يا سيادة الرئيس. أعتقد أنّ تسليم شخص عراقيّ منصباً كبيراً في الدولة المصريّة مثير للحساسيّات. عبد الناصر حين أقام وحدة مع سوريّا لم يُعطِ السوريّين أيّ منصب جدّي، لهذا استقالوا واحداً بعد الآخر ولم يبقَ منهم إلّا عبد الحميد السرّاج. كذلك، ومع احترامي وتقديري الشديدين للدكتور حسيب ولقوميّته، فإنّ له طباع العسكريّين. ذات مرّة زرت مركزه في بيروت ولم أسمع إلّا الأخبار عن ضحاياه: واحد ضربه حسيب بمنفضة السجائر، وواحد طرده من العمل، وواحدة فصلها لأنّها كانت تأكل السندويش في مكتبها، وهكذا... طباعه ستذكّر المصريّين بالعسكر، وبأسوأ أنواع العسكر.

– طبّ... أنتَ قلث قوميّة. يعني لا بدّ من غطاء قوميّ لعهدنا الجديد. دا أهمّ من الحساسيّات الإقليميّة الضيّقة اللي حتزول مع الزمن. نجِيب اللبنانيّ كمال شاتيلا مثلاً. دا عاش في مصر سنين طويلة لمّا هرب من حافظ الأسد؟

– شاتيلا دا أنا عارفاه. ما يصلحش. قضايا شَعر وصبغة شَعر وكده... وبعدين هوَّا ساداتيَ مش ناصريَ...

– ودا اللبناني التاني قِليلات... إبراهيم قليلات...

– ما يصحّش... قليلات يوجِّه الشباب المصريَ قوميّاً! يا خبر اسود! الريّس جمال استعمل قليلات علشان يهدم دولة مش علشان يبني دولة... عبوة من هِنا، اغتيال من هِناك، حاجات زيّ كده... وبعدين هوَّا عايش في سويسرا أو في إيطاليا ومعاه فلوس كتير قوي ما حدّش يعرف منين... قليلات دا من مواليد 1940 يا سيادة الرئيس. يعني مش حيقدَر يكمَّل المشوار معانا.

– ونجاح واكيم؟ في 1972 فاز بالانتخابات بأرقام كبرى...

– دا كان في 72. وبعدين نجاح محتاجو بشّار النهار ده. هوَّا بيتصدّى للمؤامرة على سوريا وشغلو كويّس هِناك.

– عندي فكرة رائعة يا أمين. نِجيب أحمد بن بلّة. رمز تاريخيَ كبير ووراه ثورة المليون شهيد وصداقة عبد الناصر... تقول إيه؟

– (بغضب، أعاده من الفصحى إلى العاميّة): جرى لك حاجة يا حمدين. عفواً، يا سيادة الرئيس؟ هِيّا الرئاسة يعني تِلَخبَط الدماغ... آسف. مش عارف أقول

إيه. إنت نسيت؟ مش فاكر قبل سنتين حضرنا جِنازتو في الجزائر. بن بلّة، الله يرحمو، مات...

– آه طبعاً طبعاً. ذاكرتي، والنبي، تعبث قوي. لكنْ جميلة بوحيرد لسّه على قيد الحياة؟

– ماشي... لكنْ نعمل فيها إيه؟ نعرِضها في مصر يعني؟

– حضور جميلة يجيب دعم معنويّ قويّ للنظام. ومعاها، وفي المحافظات جميعها، نعرض فيلم يوسف شاهين "الناصر صلاح الدين". دي حتكون رسالة للجماهير...

– عايز تخاطب الشباب بصلاح الدين...! دُول كلّهم رموز تاريخيّين يا سيادة الرئيس. ماشي... لكنْ الشباب يعني حنقول لهم إيه... نحنا منواجه مشكلة عايزين نشوفها على حقيقتها. شباب وناصريّ حاجة صعبة اليوم. حاجة ما تصحّش في مصر... والله مش عارف مالهم الشباب النهار ده... حقوق إنسان والهباب ده؟ عايزين نغريهم بحاجة تِخاطبهم، بأسماء همّا عارفينها، بقضايا...

– قضايا! هِيّا دي الكلمة يا أمين. رأيك إيه نلغي "كامب ديفيد"؟ دي حتكون خطوة قوميّة رائعة مش كده؟ دي حتِخلَق التفاف جماهيريّ واسع حول النظام الجديد... كده نولّع مسألة الكرامة الوطنيّة والقوميّة...

– (يعود أمين إلى الفصحى) يا سيادة الرئيس، هذا القرار سيكون صائباً وعظيماً بشرط واحد، هو أن نضمن

أنّ إسرائيل لن تشنّ علينا الحرب بعد إلغاء الاتّفاقيّة. وهذا يعني أنّه لا مهرب من تواصلٍ ما مع الإسرائيليّين.

– العياذ بالله يا أمين. العياذ بالله.

– أنا لا أقترح ذلك يا سيادة الرئيس، أنا ناصريّ مثلك. لكنّني أفكّر بصوت مرتفع في ما يمكن أن تذهب الأوضاع إليه. الحرب ستكون في هذه الحال حتميّة لا مهرب منها.

– ومالو يا أمين. ما نحنا كنّا بنهتف ضدّ السادات: يا أهلاً بالمعارك.

– الأمور تغيّرت يا سيادة الرئيس. أصبحنا الآن في السلطة.

– بتقول أصبحنا. أنا أصبحت... وبعدين، أنت فاكر يا أمين لمّا تحدّينا ضياء الدين داوود وأسّسنا "حزب الكرامة"...

– نعم، لكنّ هذا لا يُقارَن، يا سيّادة الرئيس، بالتحدّي الذي سيواجهك الآن، ويواجهنا معك...

– بلاش "كامب ديفيد". طبّ حيكون رأينا إيه في الفِتَن اللي حوالينا اللي سمّوها ثورات؟

– في سوريا، مؤامرة على نظام ممانع وصامد. أنت فاكر إزّاي حافظ الأسد تصدّى للسادات و"كامب ديفيد". في ليبيا، كمان مؤامرة على نظام وطني. القذّافي كان ناصري بطريقة عجيبة قوي، لكنْ ما نَقَاش أنّو ناصريّ. ما تنساش هوّا دعمنا ضدّ السادات. في اليمن، مؤامرة كمان وكمان. هوّا علي عبد الله صالح لمّا كان ضابط

صُغيّر كان متحمّس قوي للثورة الجمهوريّة على الإمام البدر. وفي تونس، يعني حتّة غنّوشي وإخوان على حتّة حقوق إنسان وليبيراليّه ومش عارف إيه...

– تمام. هِنا في مصر، نقول إنّ ثورة "يناير" كانت ثورة أصيلة لكنْ الإخوان سرقوها، وبعدين جرى التصحيح في ثورة "يونيو". مش كده؟

– طبعاً طبعاً يا سيادة الرئيس. لكنْ لازم ننتقل بسرعة للموضوع الأكثر إلحاحاً: تشكيل الحكومة...

– بالتأكيد يا أمين. عندي فِكْرا تِهبِّل: رأيك إيه في تكليف الأستاذ هيكل في الأمر؟ رمز تاريخيّ عظيم ومفكّر كبير ورفيق عبد الناصر...

– دي تهبِّل فعلاً. رمز تاريخي، أيوه، أطال الله عمره، لكنْ أنت عارف يعني في المَرّا الفاتِت اللي زرناه ما كانش يفَهِّم كلام. كان عايز يقول ناصر، قال نجيب، وعايز يقول فاروق، قال فؤاد... لازم نشوف حدّ تاني للحكومة!

– (يخبط حمدين يده على الطاولة): يعني ما فيش ناصري أصغر من تمانين!

– سمعت في بيروت إنّ أولاد نجاح واكيم ناصريّين...

– لا أنا بتكلّم في الإجمال (وبعد لحظة صمت) طبّ حنِدّي الشباب إيه في الاقتصاد؟

– تِدّيهم إيه؟ الدولة مفلّسة وعايزين استثمارات ومعونات...

– دي إمبرياليّة يعني! دي مشكلة والله! نقول إيه للشباب؟ نقول إيه للجماهير؟

– في البداية نقول إنّنا صحّحنا ثورة "يوليو" التي غدر بها السادات ومبارك، ثمّ صحّحنا ثورة "يناير" التي سرقها الإخوان...

– وصحّحنا إيه كمان؟ حنِفضَل نصحّح! دا كلام ينفع لشهر واحد، وبعدو تيجي المشكلات! آه لو عندنا، يا أمين، مذيع زيّ أحمد سعيد... كان يلهِّب الدنيا وينسّي الناس همومها...

– دا انتهى يا سيادة الرئيس. ما حدّش يسمع راديو أصلاً، ما حدّش يرفع ترانزيستور. وبعدين ما لك نسيت تاني. ما إحنا عملنا مراجعة للمرحلة الناصريّة، وقلنا كان لازم ديموقراطيّة ومصارحة الجماهير بالحقيقة وشفافيّة وحاجات زيّ كده؟

– أنت فاكر عبد الناصر ما كانش عارف الهباب دا كلّو، وأنّ الشعب عايز حرّيّة وديموقراطيّة وشفافيّة... لكنْ الله يرحمو كان عارف كمان إنّك إذا إدّيتهم حرّيّة يروحو أمريكا، وأن الأمن وأحمد سعيد همّا الطريقة الوحيدة لاستقرار الحكم يا أمين.

– ما أظنّيش كان لازم نكسب الانتخابات يا حمدين، عفواً: يا سيادة الرئيس. الله يكون في عوننا. حنتبهدل. بصراحة، أنا أحسد السيسي.

– (بغضب): هوّا حدّ يحسد السيسي؟!

فجأة انقطعت الكهرباء وانقطع البثّ.

بشّار الأسد يستضيف عبد الحميد السرّاج في دمشق

في حوالى السابعة مساء، توقّفت أمام "قصر الشعب" السوريّ سيّارتا ليموزين سوداوان، زجاجهما مُفيّم. رجل في الثمانين أو نحوها نزل من السيّارة الأولى بعد أن فتح له المرافقون باب السيّارة وصحبوه إلى داخل القصر.

الرئيس بشّار الأسد وزوجته أسماء كانا في استقباله. صافحاه بحرارة وانتقل الثلاثة إلى مكتب الرئيس حيث كان في انتظارهم مصطفى طلاس، وزير الدفاع السابق الذي كان قد تقاعد قبل عام واحد، لكنّه احتفظ بعلاقة أبويّة مع الرئيس السوريّ.

الخبر الذي بقي سرّاً كان كفيلاً، في ما لو عُرف، بأن يهزّ سوريّا، وأن ينافس الحدث الذي كان يعيشه السوريّون يومذاك، وهو اضطرار جيشهم إلى الانسحاب من لبنان.

الزائر ليس سوى عبد الحميد السرّاج بلحمه وشحمه. إنّه يزور بلده للمرّة الأولى منذ 1962 حين أقام لاجئاً في مصر.

"على مدى الـ43 عاماً الماضية بقيت سوريّا في عقلي وقلبي، رغم أنّ قوميّتي العربيّة تجعل كلّ بقعة ما بين المحيط والخليج وطناً لي. والحقيقة أنّني لا أعرف كيف أشكر الأخ أبا فراس [مصطفى طلاس] لأنّه لفت نظركم، يا سيادة الرئيس، إلى دعوتي للعودة إلى

الوطن، وطبعاً أشكركم وأشكر حَرَمكم على إتاحة هذه الفرصة لي".

"نحن الذين نشكرك يا عمّ عبد الحميد... المرحلة العصيبة والهجمة التي نتعرّض لها اليوم، وتتمثّل بالمؤامرة على سوريّا وما فُرض علينا من تراجع تكتيكيّ هو سحب قوّاتنا من لبنان... هذا كلّه يستدعي الاستماع إلى أمثالكم ممّن يجمعون بين الوطنيّة والحكمة وتجربة غنيّة في التعرّض لتحدّيات مشابهة...".

لكنْ، على نحو مفاجئ، تتدخّل أسماء الأسد: "عمّو عبد الحميد، قبل أن تبدأوا الكلام الجدّيّ، أحبّ أن أقول شيئاً. لقد سمعت الكثير عنك وعن أهمّيتك من عمّو حافظ، الله يرحمو، ومن عمّو مصطفى. هل لك أن تُخبرني عن أبرز ما فعلتَه هنا في سوريّا أيّام زمان؟".

"آه يا عمّو... هل أستطيع أن أخاطبكِ هكذا؟".

"طبعاً، طبعاً".

ومع أن السرّاج لم يكن معروفاً بكثرة الكلام، لكنّه راح يتحدّث بإسهاب وطلاقة كأنّه يروي كلّ ما صمت عنه في سنواته المديدة في الماضي:

"من أين أبدأ؟ من التصدّي للمؤامرة، أم من إقامة الوحدة، أم من علاقتي بعبد الناصر وعبد الحكيم عامر، أم...".

"عمّو، خبّرنا عن الذين قتلتَهم من المتآمرين على سوريّا. أنا سمعت فقط بقصّة الرجل الذي ذوّبتَه

بالأسيد... الحلو... فرج... لم أعد أذكر الاسم تماماً. ياي. How exciting القصّة كتير ظريفة (قهقهة)".

"اسمه فرج الله الحلو. هذه القصّة، بسبب الضجّة التي أثارتها وبسبب استخدام خصومنا لها، حجبت أعمال تطهير لا تقلّ أهميّة. هل سمعتِ مثلاً بهزّاع المجالي؟".

"هزّاع شو... عمّو؟".

"المجالي. رئيس حكومة الأردن في 1960. فجّرتُ فيه مقرّ رئاسة الحكومة، فقُتل وقُتل معه 12 مسؤولاً أردنيّاً رفيعاً. كان من المتوقّع أن يكون الملك حسين هناك لكنّه لم يحضر. في لبنان، من أجل التحريض على الثورة ضدّ كميل شمعون، قتلنا الصحافيّ نسيب المتني. نسيب كان معارضاً لشمعون، ولهذا قدّرتُ أنّ الجميع سيظنّون أنّ شمعون هو الذي قتله وينفجر الوضع. قبل قتله بأشهر قتلنا الضابط غسّان جديد في بيروت. أعداد من القوميّين السوريّين والشيوعيّين والإخوان المسلمين فرمتُهم فرماً. مَن لم يمت خرج من السجن من دون أظافر. اثنان من دون أعين. ثلاثة من دون ألسنة. أذكر من عندكم، من حمص، المدرّس والنقابيّ الشيوعيّ سعيد الدروبي. قضى تحت التعذيب. صحافيّ أرمنيّ شيوعيّ من حلب اسمه بيار شدرفيان مات فيما شبّاننا يطفئون السجائر في جسده. لقد تعاون معي عدد من الضبّاط والمناضلين القوميّين الشرفاء ممّن لا أنساهم ما حييت: سامي جمعة وعبد

الوهاب الخطيب وأكرم الصفدي. كنت أمازح عبد الوهاب وأقول له: يستحيل أن تلبس ثياباً نظيفةً لأنّك لا تستطيع أن تغسل بقع الدم العالقة عليها جميعها. كانوا أصيلين بالفعل".

في هذه اللحظة كان الرئيس الأسد يفرك يديه ويهتزّ جسده كأنّ رعشة تسري فيه، بينما يتبادل وزوجته ضحكتين عريضتين وسعادة غامرة...

ومضى السرّاج: "لا أستطيع حصر كلّ الذين صفّيناهم دفاعاً عن سوريّا وعروبتها ضدّ المتآمرين. هذا صار تراثاً مضيئاً يغرف منه كلّ من جاؤوا بعدي وأرادوا التصدّي للمؤامرة"...

بشّار الأسد: "ذاك الماضي كان قاسياً أيضاً وكان لا بدّ من القسوة في التعامل معه ممّا أحدث ارتباكات وخلافات داخل أهل الخندق الواحد (أضاف ضاحكاً) وأنت لم ترحم حتّى "حزب البعث" الذي كان الوالد ينتمي إليه، و"الحزب السوريّ القوميّ" الذي استقطب أخوالي من آل مخلوف...".

"يا سيادة الرئيس، أنت مثل ابني، واسمح لي أن أخاطبك باسمك الأوّل. القوميّون السوريّون كانوا آنذاك ضالعين في المؤامرة، وأنا مع احترامي لآل مخلوف الذين غيّرتهم مصاهرة المرحوم والدك لهم، لا أثق بأنّ حزبهم قد تغيّر. هذه مسألة سيجلوها التاريخ لاحقاً. أمّا "البعث"، فأنا قسوت على بعث ميشال عفلق وبعث أكرم

الحوراني. لكنّ بعث والدك لم يكن قد ظهر بعد. وأذكّرك بما جاء في كتاب حنّا بطاطو عن سوريّا...".

تقاطعه أسماء وهي تضحك: "اسمه حنّا بطاطا، يعني potatoes؟!".

"لا يا عزيزتي، حنّا بطاطو، وهو باحث فلسطينيّ الأصل، أصدر قبل ستّ سنوات كتاباً عن سوريّا قال فيه إنّ الرئيس الراحل، رحمه الله، أعاد تأسيس "البعث" ثانية. بعث الأسد غير بعث عفلق والحوراني. التوجّهات التي صاغها ودافع عنها الرئيس الأسد هي نفسها التي ناضلتُ أنا في سبيلها: التصدّي للمؤامرة على سوريّا. خنق الأحزاب والنقابات والصحافة. جعل السفر إلى الخارج والاحتكاك بالعالم الخارجيّ مسألة في غاية الصعوبة. السيطرة على لبنان وضبط الحرّيّات السياسيّة والإعلاميّة فيه... التفاصيل تتغيّر لكنّ الأساسيّات لا تتغيّر".

وتدخّل طلاس: "صحيح تماماً. في التفاصيل مثلاً، صاهرتُ أنا آل الجابري، فهل هذا يعني أنّنا صرنا من مؤيّدي الرجعيّين. كذلك فنحن اليوم، أي بيت طلاس وبيت الأسد وبيت مخلوف، من كبار الأغنياء، فهل هذا يعني أنّنا لم نعد اشتراكيّين!؟ طبعاً لا".

وكأنّ السرّاج، الذي كان شارداً، أحسّ بأنّ طلاس هبط بمستوى الكلام، وانتابه شيء من الضجر، فقاطعه:

"بعد هذه التجربة الطويلة، بتُّ على يقين بأنّ أسماء الأحزاب والعقائد ليست مهمّة (راسماً بسمة على

شفتيه). ألم يقل شاعرنا نزار قبّاني:

"أسخفُ ما نحمله يا سيّدي الأسماء".

(ضاحكةً) "طبعاً، لستُ أنا المقصودة".

"طبعاً طبعاً يا عزيزتي، معقول!".

"إذاً، عمّو عبد الحميد، أنت تقرأ الشعر؟".

"أكثر شيء قرأته في حياتي، بعد تقارير المخابرات، هو الشعر. هناك بيت لا أزال أعشقه ولو أنّني أكره صاحبه القوميّ السوريّ أدونيس:

ما في دمي غير نداء الكفاح

ما في شراييني غير اليقين".

"وماذا يعني اليقين، عمّو؟".

"إنّه عكس الشكّ يا عزيزتي. مَن ينوي التصدّي للمؤامرة عليه ألّا يشكّ في صحّة ما يفعل، حتّى لو كلّف الأمر مليون قتيل. والآن، اسمحوا لي أن أعود إلى الفكرة التي بدأتها: هناك في النهاية حزبان على رغم الاختلافات في الأسماء والعقائد. الاختلافات هذه هي الملح الذي نرشّه على الطبق، أمّا المهمّ، فهو الطبق نفسه. هذان الحزبان هما حزب المؤامرة الذي يتحدّث عن الحرّيّة والديموقراطيّة وحقوق الإنسان وباقي هذا الهراء الذي جاء به الأجنبيّ لتفتيتنا، وحزب التصدّي للمؤامرة بامتلاك يقين كامل ودائماً بالضرب بيد من حديد. لهذا كنت دائماً قريباً جدّاً ممّن قالوا إنّهم سيبنون دولة قويّة في سوريّا: لقد خدمت حسني الزعيم وأديب الشيشكلي قبل أن أقع في عبادة جمال

عبد الناصر... هل أذكّركم بما جرى معي في أوائل الستينات؟ لقد تكاثرت الشكاوى التي قُدِمت ضدّي للرئيس عبد الناصر، حتى اقتنع بأنّني أكثر تشدّداً وقسوة ممّا يجب. هكذا منحني لقباً شرفيّاً هو نيابة رئاسة الجمهوريّة وطلب منّي أن أبتعد عن دمشق وأبقى قريباً منه في القاهرة. أمّا الذي تسلّم أمور سوريّا، فلم يكن إلّا ذاك الأبله صاحب الشخصيّة المائعة عبد الحكيم عامر. تأمّلوا أنّ ذاك العبيط لم يكتشف أنّ مدير مكتبه عبد الكريم النحلاوي هو الذي يُعدّ مؤامرة الانفصال! هكذا نُفّذت المؤامرة، بسبب التساهل، وكان ما كان...".

"يا عمّ عبد الحميد، المشكلة الأبرز التي نواجهها اليوم هي لبنان، فكيف نتعامل معه؟".

"قل لي يا عزيزي بشّار، هل أنت من قتل رفيق الحريري؟".

(يحاول الأسد أن يتملّص من الإجابة بضحكات لا تخلو من خفّة) "تستطيع أن تقول ذلك، لكنْ بمساعدة أطراف لبنانيّين".

"برافو يا ابني، برافو".

"هذا الحريري من البداية لم أستنظفه. لقد أحسست أنّ وراءه ووراء أمواله مؤامرة على سوريّا يحيكها السعوديّون والأميركيّون والفرنسيّون. هل تعرفون قصصي مع الملك سعود بن عبد العزيز حين حاول

شرائي بالأموال لمناهضة عبد الناصر والوحدة؟ إنّهم لم يتغيّروا".

"لكنّ اغتياله كلّفنا الكثير حتّى الآن...".

"هذا قابل لأن يتغيّر. المهمّ أن لا تتغيّروا أنتم. أن تصمدوا في مواجهة الهجمة. كيف تصمدون؟ سأقول لك من تجربتي: تأديب لبنان وتدجينه شرط لا مهرب منه في الدفاع عن سوريّا وإحباط المؤامرة عليها. لبنان بلد جواسيس ومصارف وسفارات وصحف، وهذه أشياء مُغرية. إسكات هؤلاء أمر أساسيّ. في عهد الوحدة، ومن موقعي في وزارة الداخليّة، أقمت مكتباً خاصّاً للشؤون اللبنانيّة مركزه في منطقة الحواكير في دمشق. تولّى المكتب برهان أدهم وكان قاطعاً كالسيف: من لا يمشي بالقوّة يمشي بالمال والعكس بالعكس. وطبعاً، وباسم القوميّة أو الإسلام، وُجد دائماً متطوّعون لبنانيّون يعملون معنا. لولا هذا المكتب لما عاشت الوحدة يوماً واحداً. الاستعمار كان دائماً ينقضّ علينا من لبنان، ولهذا ينبغي أن لا يرتفع هناك أيّ صوت يناهضنا. لقد كنت أنسّق، في تلك الأيّام، مع فؤاد شهاب ومكتبه الثاني، وأنتم تستطيعون اليوم أن تنسّقوا مع إميل لحّود. إنّه رئيس الجمهوريّة وأنتم الذين وضعتموه حيث هو. لحّود أيضاً عسكريّ مثل شهاب، ومثلنا. أليس كذلك يا أبا فراس؟. أخلص من هذه التجربة إلى التالي: اغتالوا ما استطعتم. هكذا تُرهبونهم. هكذا يحسّون أنّكم جدّيّون. اغتالوا بلا

رحمة. استعملوا الأحزاب الصغرى في لبنان لهذه الأغراض: قوميّين، يساريّين، ما تيسّر...".

"والغرب؟ كيف نواجه الحملة التي يشنّها علينا؟".

"ينبغي أن يتعب الغرب قبل أن تتعبوا. والدك، رحمه الله، شارك في خطف الرعايا الأجانب في بيروت لكي يُخيفهم. هذا كان نهجاً صائباً ومفيداً. لقد كنت أراقبه بدقّة من القاهرة كما أرسلت إليه سرّاً كتاباً أؤيّد فيه ما يفعله وأنقل إليه أيضاً بعض تحفّظاتي التي لم يتوقّف عندها. ما الذي جرى بعد ذلك؟ انسحب المستعمرون وفشلت المؤامرة (لحظة صمت). قبيل حرب 67 كانت إذاعة دمشق تذيع أغنية أحببتها كثيراً ولا أزال أظنّ أنّها أهمّ تحفة شعريّة وفنّيّة أنتجتها الأمّة العربيّة في العصر الحديث. إنّها تختصر فلسفتي في الحياة (متوجّهاً إلى أسماء) لو سمعتِها لأحببتِها كثيراً يا عمّو. الأغنية تبدأ بهذا البيت الرائع: "أحرق دمّر اقتل اضرب/ لا ترحم أبداً أعداءك"... ألا تذكرها يا أبا فراس؟".

"طبعاً، كثيراً ما كنت أغنّيها. لكنّ حسابات الأغنية لم تطابق للأسف حسابات الحرب".

وإذ سادت لحظة صمت أخرى، نظر بشّار إلى السرّاج وقال: "طبعاً ستكون لنا مستقبلاً جلسات كثيرة نتناول الأمور فيها بتفصيل أكبر. لكنْ أين ستقيم الآن: في دمشق أم في مدينتك حماة؟". هنا، ومن دون مقدّمات، بدا كأنّ تيّاراً كهربائيّاً سرى في شرايين السرّاج: "كلّما ذُكرت حماة شعرت بجرح داخليّ عميق. إنّني لا

أستطيع أن أغفر أبداً تدمير مدينتي وقتل أهلي في 1982".

"تقصد "الإخوان المسلمين"؟".

"لا، أنا أقصد النظام. أقصد ما فعله عمّك رفعت وسواه".

"لكنّها كانت مؤامرة إخوانيّة على سوريّا؟".

"لا. تدمير حماة كان هو المؤامرة" (أسماء، في هذه الغضون، تسأل: "وماذا حدث في حماة؟"، ووسط الغضب المتصاعد لا يكلّف أحد نفسه بأن يجيبها).

"لقد سبق أن قلتَ إنّك أيّدت سياسة الوالد في لبنان والتي لم تنفصل عن سياسته في حماة. المؤامرة كانت تطلّ برؤوس كثيرة!".

"أيّدتُها، لكنْ مع التحفّظات التي أوردتها ولم يكترث لها. قلت له: اخطف الأجانب وحدك، فهذا انتصار للأمّة العربيّة، أمّا أن تخطفهم مع الفرس، فهذا يوزّع الانتصار بيننا وبينهم. إنّهم في النهاية أعداء للعروبة".

"يبدو أنّك تتمسّك بالمفهوم السيّئ القديم للعروبة؟" (طلاس يتشاغل ويروح يدقّق في تفاصيل السجّادة الإيرانيّة التي تزيّن أرض المكتب).

"هناك مفهوم واحد للعروبة ولمواجهة أعداء الأمّة. دعني أقل لك إنّ السنّة هم أصحاب هذا المفهوم لأنّهم ليسوا طائفة. إنّهم هم الأمّة".

(بصوت لا يخفي السخرية) "وهذا بالطبع يشمل "الإخوان المسلمين"! أليس كذلك؟".

(بغضب) "المؤكّد أنّه لا يشمل أبناء وأحفاد سليمان المرشد".

هبط على غرفة المكتب جوّ ثقيل جدّاً قطعه السرّاج بالوقوف: "شكراً مرّة ثانية على الضيافة والاستقبال. لكنّني أظنّ أنّني سأعود في أوّل طائرة إلى القاهرة".

"ربّما كان ذلك أفضل للجميع. بالتوفيق".

لاحقاً أسرّ السرّاج لأصدقاء في القاهرة أنّه، خلال ربع الساعة الأخير من الجلسة، كثيراً ما تذكّر صلاح الدين البيطار الذي استضافه حافظ، والد بشّار، في دمشق، قبل أن يغتاله في باريس.

حلم أمين الجميّل الرائع بحافظ الأسد

دعا الرئيس السوريّ حافظ الأسد إلى "خلوة استثنائيّة لخليّة الأزمة" في 5 آذار/ مارس 1984. في قصره الرئاسيّ التفّ حوله قادة نظامه عبد الحليم خدّام ومصطفى طلاس وحكمت الشهابي وناجي جميل وفاروق الشرع ومحمّد ناصيف وعلي دوبا. الوقت كان أوّل المساء.

حين دخلوا معاً وجدوا الأسد في حيرة من أمره على نحو لم يعهدوه فيه من قبل. كان، هو المعروف بالحسم، متردّداً كأنّ بعضه يصارع بعضه الآخر.

عبد الحليم خدّام بادره: شو القصّة يا سيادة الرئيس، كيف شايف الوضع؟، فجاء الجواب مختلفاً عن إجابات الأسد في العادة: شيئين يا أبو جمال. واحد مُفرح وواحد خطير. المفرح آخر تقرير أرسل إليّ من السجون، سجوننا، وهو أنّ عدداً من المساجين، الإخوان واليساريّين والقوميّين كما يسمّون أنفسهم، يعبّرون عن سخطهم على الحكومة اللبنانيّة بسبب اتّفاقيّة "17 أيّار"، وهم يشتمون البرلمان اللبنانيّ لأنّه صادق عليها. لقد أرسلوا إليّ برقيّة يؤيّدون فيها سياستنا في التصدّي لاتّفاق الإذعان والعار. تأمّلوا! بعضهم من مدينة حماة، وأنتم كلّكم على علم بما فعلناه بها، لكنّهم بمجرّد أن سمعوا باتّفاق لبنانيّ إسرائيليّ باتوا يردّدون الكلام نفسه الذي نقوله نحن عن أنّه اتّفاق إذعان وخيانة. هذا

دليل على أنّ شعبنا أصيل يعرف أين يكمن الخطر الحقيقيّ (وبعد لحظة صمت وبضحكة صفراء على شفتيه) ... وإن كان على شيء من الهبل أيضاً.

وبعد قهقهة شارك فيها الجميع، أكمل الرئيس: الشيء الخطير هو بالطبع ما تعرفونه جميعاً من أنّ البرلمان اللبنانيّ وافق على الاتّفاق. لقد وافق 95 نائباً من أصل 99. هذه كارثة كبرى. زاهر الخطيب ونجاح واكيم وحدهما صوّتا ضدّه، ورشيد كرامي لم يحضر الجلسة، فيما رفيقنا السابق عبد المجيد الرافعي لم يجرؤ على مغادرة بغداد إلى بيروت خوفاً منّا بالطبع.

طلاس: لكنْ لماذا هو خبر خطير؟ ألم تقل لي سابقاً، يا سيادة الرئيس، إنّ اللبنانيّين كانوا يطلعونكم إبّان التفاوض على كلّ ما يتوصّلون إليه مع الإسرائيليّين، ويطلبون منّا أن نعترض على ما لا يعجبنا؟.

عجيب كم أنت بريء يا مصطفى. نعم، كانوا يفعلون ذلك، وكنّا نوحي لهم بالموافقة على ما يتوصّلون إليه مع الإسرائيليّين من أجل أن يتورّطوا ويوقّعوا الاتّفاق. هذا بذاته كان يمكن أن يشكّل فرصة نادرة لنا كي نعيد إمساك الورقة اللبنانيّة. لكنّ الخطير هو هذا الإجماع اللبنانيّ الواسع على تأييد الاتّفاق.

واستطرد الرئيس وهو يوجّه نظره إلى محمّد ناصيف: صديقك نبيه برّي في "حركة أمل"، أتعرف ماذا أوصل لي حين طلبت منه أن يعلن انتفاضة في بيروت والضاحية الجنوبيّة ضدّ حكم أمين الجميّل واتّفاق 17

أيّار؟ قال إنّ مصالح الجنوبيّين الذين يمثّلهم تقتضي الموافقة على الاتّفاق، وأنّ الشيعة، مثلهم مثل سائر اللبنانيّين، تعبوا من الحروب. وحين أوصلت له أنّ أمين الجميّل عدوّ لحركته ولطائفته، أتعرفون بماذا ردّ؟ قال إنّ الذين خطفوا موسى الصدر في ليبيا، قاصداً معمّر القذّافي ومحمّد بهشتي، هم حلفاء لنا، لا لأمين الجميّل. وهو في موقفه هذا متضامن مع قادة آخرين في طائفته كرئيس المجلس النيابيّ كامل الأسعد ونائب رئيس المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى محمّد مهدي شمس الدين وعادل عسيران وعبد اللطيف الزين وكاظم الخليل وحسين الحسيني وغيرهم. وليد جنبلاط لم يكن تجاوبه أفضل حالاً. طلبنا منه أن ينتفض في الجبل وقلنا له إنّ مدفعيّتنا ومدفعيّة جماعتنا من الفلسطينيّين المعارضين لعرفات يمكن أن تسانداه، فردّ بمطالعة حملها إليّ محسن دلّول الذي احتجزناه في أحد الاقبية هنا كما تعلمون. وليد بك (بسخريّة) قال إنّ "سلطتنا الأمنيّة"، تخيّلوا!، هي التي اغتالت أباه كمال، وليس أمين الجميّل. كذلك اعتبر أنّ أهل جبل لبنان قد شبعوا من التذابح الطائفيّ وآن لهم أن يعيشوا بسلام وطمأنينة. لقد ذكّرني بكلّ وقاحة بأنّنا نحن سبق أن وقّعنا اتّفاق فصل قوّات مع الإسرائيليّين في 74. السُنّة أوضاعهم ليست أحسن (ينظر إلى فاروق الشرع وحكمت الشهابي). صائب سلام ماضٍ في رعايته لأمين الجميّل واتّفاق "17 أيّار". نموذج رئيس حكومتهم

شفيق الوزّان يعمّ وينتشر في بيروت وطرابلس وصيدا. حتّى رشيد الصلح أجاب أنّه يفكّر في المسألة (ضحك). تأمّلوا: رشيد الصلح يفكّر! رشيد كرامي وحده موقفه شريف، لكنّه مغلوب على أمره لأنّ عواطف الطرابلسيّين ليست معه. هم يكرهون نظامنا وأجهزتنا الأمنيّة أكثر ممّا يكرهون إسرائيل، ويقولون، مثلهم مثل باقي اللبنانيّين، إنّهم شبعوا حروباً ومواجهات دمويّة. الشابّ الصيداويّ المقيم في السعوديّة، ما اسمه يا عبد الحليم؟

خدّام: رفيق الحريري.

نعم، الحريري. إنّه يحرّك الأمور في هذا الاتّجاه مدعوماً من دول الخليج. ويبدو أنّه يرشّ المال رشّاً على من يمكن أن يتردّدوا أو يحتاروا. مسيحيّاً، اتّصلت بصديقي القديم سليمان فرنجيّة وذكّرته بالمذبحة الشنيعة التي ارتكبها الكتائبيّون بنجله وعائلته، وطلبت منه أن يتحرّك ضدّ "17 أيّار"، فماذا أجاب؟ قال إنّ اللبنانيّين كلّهم ارتكبوا المذابح بحقّ بعضهم، وأنّه آن أوان طيّ صفحة الماضي. أرأيتم هذه الحكمة المفاجئة؟ حتّى الشيوعيّون، جورج حاوي ومحسن إبراهيم، صاروا حكماء. قالوا إنّهم يريدون الانتقال إلى معارضة سلميّة وإلى حياة سياسيّة يدافعون فيها عن حقوق الكادحين والشعب الفلسطينيّ ويسعون إلى ما أسموه محاصرة الاختراق الإسرائيليّ للمجتمع اللبنانيّ. لقد كتب أحد منظّريهم مقالة عن (هنا التفت الأسد

حوله باحثاً عن بهجت سليمان، ولمّا لم يجده طلبه فحضر فوراً)... أنت تحبّ الكلام الكبير يا بهجت، فماذا قالت تلك المقالة الشيوعيّة؟

سليمان: قالت إنّ حركة الصراع الطبقيّ مع البورجوازيّة الكولونياليّة يمكن أن تتمظهر في بعض الحالات في صورة سلميّة...

واستأنف الأسد: تخيّلوا. لقد أصبحت هناك وطنيّة لبنانيّة... يا لسخرية القدر. نجاح واكيم وزاهر الخطيب دعيا إلى تظاهرة في بيروت ضدّ "17 أيّار" فلم يحضر إلّا 76 شخصاً!.

علي دوبا: 77 سيادة الرئيس.

يا أخي 78. ماشي. يبقى أنّه وضع لا يطاق فعلاً. اللبنانيّون يتصرّفون كأنّهم يريدون حقّاً أن يبنوا بلداً مسالماً يختلفون فيه من دون عنف. هذا خطر كبير على سوريّا التي لا نستطيع حمايتها من دون التلويح بالحروب والمخاطر المصيريّة، ولاسيّما الحرب مع إسرائيل. لقد سهرنا على بناء هذه المعادلة الإستراتيجيّة: نحن نهوّل بالنزاع مع إسرائيل فيما اللبنانيّون والفلسطينيّون يخوضونها. الآن يهدّدنا هذا الإجماع اللبنانيّ العجيب بإبطال مفاعيل المعادلة هذه.

خدّام: لكنّ اتّفاق "17 أيّار" يشترط انسحاباً سوريّاً وفلسطينيّاً قبل حصول الانسحاب الإسرائيليّ...

يزمّ الأسد أنفه كأنّه شمّ فجأة رائحة سيّئة: معلوماتي أنّ عرفات مستعدّ أن ينسحب من المناطق

التي لا تزال قوّاته فيها في البقاع والشمال. هناك ترتيبات دوليّة وعربيّة لإنجاز هذه المهمّة، وهذا ما يعني أنّنا سنبدو وحدنا طرفاً شاذاً يتصدّى لإجماع كبير. كلّهم يتآمرون علينا...

وما العمل؟، سأل محمّد ناصيف.

هذا السؤال هو ما دعاني إلى عقد هذا الاجتماع. أنت تعرف يا أبو وائل ماذا فعلنا معاً على هذا الصعيد. لقد فعلنا الكثير. بالتنسيق مع الإيرانيّين حاولنا دفع حسين الموسوي إلى الانشقاق عن "حركة أمل"، فلم يقف معه إلّا أربعة عناصر فرّوا جميعاً إلى سوريّا وهم يقيمون الآن في حمص. نظّم الإيرانيّون جماعة سمّوها "الجهاد الإسلاميّ" كي تفجّر السفارتين الأميركيّة والفرنسيّة في بيروت. ماذا كانت النتيجة؟ ألقى عناصر من الأمن اللبنانيّ بالتعاون مع "حركة أمل" القبض عليهم. دعا السفير الإيرانيّ في دمشق علي أكبر محتشمي بعض رجال الدين الشيعة الشبّان كي يؤسّسوا تنظيماً يعارض سياسة برّي ويدعو إلى المضيّ في المقاومة وتحدّي "17 أيّار"، فلم يحضر منهم إلّا ثلاثة. اتّصلنا بآل أرسلان علّهم يملأون الفراغ الدرزيّ الذي خلّفه وليد جنبلاط، فتبيّن لنا أنّ فيصل أرسلان لا يزال محزوناً على بشير الجميّل، بينما أخوه الأصغر طلال لا يزال محزوناً على أبيه الأمير مجيد. كذلك اتّصلنا بأوساط سنّيّة من مخلّفات التنظيمات الناصريّة وحدّثناهم عن جمال عبد الناصر، بل عن صلاح الدين

الأيوبي أيضاً، لكنْ لم يتحمَس أحد منهم. قالوا إنّ هذا كلّه بات قديماً وعلينا أن نتجاوزه في سبيل المستقبل. تخيّلوا! قلنا لهم إنّ ما فعله أمين الجميّل يشبه ما فعله أنور السادات، فأجابنا محامٍ فصيح منهم اسمه محمّد قبّاني أنّ ما تمّ توقيعه ليس معاهدة سلام بل معاهدة عدم اعتداء وإنهاء لحالة الحرب. سألونا بدورهم: هل تعتقدون أنّ في وسع لبنان أن يتحمّل ما لم تستطع مصر أن تتحمّله؟ قلنا لهم: انظروا إلى سوريّا كنموذج للصمود والتصدّي، فقالوا إنّه ليس النموذج الذي يُغريهم. يريدون حرّيّة، لعن الله الحريّة! لا أعرف من أين حلّ على اللبنانيّين هذا العقل الكبير. هذه الوطنيّة. هذا التعالي عن الماضي وعن الصغائر. وزير خارجيّتهم إيلي سالم، المولع بتعليمه الجامعيّ، شبّه وضعهم الحاليّ بـ"حرب الوردتين" في التاريخ الإنكليزيّ. أليس هذا اسمها يا بهجت؟ آنذاك، كما قال سالم، استنتج الإنكليز، بعد حرب دامية بين آل يورك وآل لانكستر، أنّ العنف لا يحلّ مشكلة. هذا شيء لا أستطيع أن أتخيّله.

ناجي جميل: وهل يستطيع أيّ منّا أن يتخيّله يا سيادة الرئيس؟ العنف يحلّ كلّ مشكلاتنا...

صحيح يا ناجي، لكنْ ربّما آن الأوان أن نفكّر بطريقة أخرى. أصارحكم أنّني أحسد أمين الجميّل. هل تصدّقون إلى أيّ حدّ انحطّت بنا الأوضاع؟ ليتني أستطيع أن أقلّد أمين الجميّل... ليتني أستطيع... لقد انتصف الليل وبات علينا أن نعود إلى الهدف من

اجتماعنا هذا: ما أودّ أن أقوله هو أنّنا لا يمكننا أن نفعل شيئاً أمام هذا الإجماع الوطنيّ اللبنانيّ الكبير واللعين. هل لدى أحدكم أيّ اقتراح آخر؟

وإذ صمت الجميع، أفاق من نومه أمين الجميّل في الشقّة الباريسيّة حيث يقيم لاجئاً، وكانت تغمره سعادة لا توصف.

المراسلات السرّيّة بين ديك تشيني وطارق عزيز

بين 20 آذار/ مارس و9 نيسان/ أبريل 2003، تبادل ديك تشيني، نائب الرئيس الأميركيّ، وطارق عزيز، نائب رئيس الحكومة العراقيّ، عدداً من الرسائل التي كشفت بعضَها وزارةُ الخارجيّة الأميركيّة من غير أن يظهر أيّ تكذيب عراقيّ لها.

تقول الرسالة الأولى التي كتبها عزيز:

"بغداد في 2003/3/20،

سيادة نائب الرئيس ديك تشيني،

بعد التحيّة،

لقد صنّفَنا رئيسكم السيّد جورج دبليو بوش، قبل عام ونيّف، واحداً من ثلاثة أطراف تُشكّل معاً "محور شرّ" في العالم، ثمّ تناهت إلينا معلومات خطيرة عن أنّكم ستعتبروننا من المسؤولين عن المأساة التي حلّت بمدينتي واشنطن دي سي ونيويورك قبل عامين. ويبدو أنّ هذا التصنيف الظالم لنا، والمصحوب باتّهامنا بامتلاك أسلحة محظّرة دوليّاً، هو تمهيد لاستهدافنا عسكريّاً. إنّ هذه الصورة التي تقدّمونها عنّا لا أساس لها من الصحّة إطلاقاً، ونحن نعلم أنّ بعض العراقيّين الحاقدين على وطنهم وشعبهم، خصوصاً ذاك المدعوّ أحمد الجلبي، هم الذين سوّقوها عنّا وأقنعوكم بها. إنّنا مستعدّون أن نضع كلّ الأوراق على طاولة التفاوض من أجل أن نوضح لكم موقفنا الودّيّ منكم. واسمحوا لنا أن نذكّركم بأنّ العراق

هو الذي وقف في وجه إيران الخمينيّ ودفع أكلافاً بشريّة واقتصاديّة باهظة. كما أنّ الحزب الذي يحكم العراق، "حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ"، كان من أشجع الذين تصدّوا للمدّ الشيوعيّ في الستينيات، في ذروة الحرب الباردة، فكنّا بالتالي، نحن وإيّاكم، في خندق واحد. مع هذا، فإنّ رئيسكم السابق جورج بوش لم يكن مستقيماً معنا حين أرسل إلينا سفيرتكم السيّدة إبريل غلاسبي فخدعتنا وورّطتنا في المغامرة الكويتيّة. لقد كان هدفنا أن نتخلّص من حكم إقطاعيّ تتعارض قيمه مع القيم الأميركيّة والغربيّة المتمدّنة. لكنّكم جئتم بجيوش جرّارة لإذلال العراق وحماية تلك الإمارة الإقطاعيّة القروسطيّة.

إنّنا، يا سيادة نائب الرئيس، وكما ذكرت قبلاً، مستعدّون للتحدّث في كلّ شيء، بما في ذلك النفط. واسمح لي أن أقول إنّ كتابات وتحليلات بعض من يسمّون أنفسهم "مناهضين للإمبرياليّة"، في بلادنا وخصوصاً في بلادكم، تركّز على ما تعتبره أطماعكم في نفطنا. وهم ينبّهون دائماً إلى أنّكم أنتم شخصيّاً كنتم، حتّى الأمس القريب، المدير التنفيذيّ لشركة "هالّيبرتون". وبدورنا، نحن لا نزال حتّى الآن نرفض الأخذ بهذه التقديرات مع أنّنا، كنظام يحترم إرادة الشعب وحرّيّته، لا نستطيع منعه من التعبير عن هواجسه هذه.

على أيّ حال، أنا في انتظار جوابكم كي نبدأ حواراً صريحاً وشاملاً بين أصدقاء.

تفضّلوا بقبول احترامي،

طارق عزيز".

ويبدو أنّ جواب تشيني لم يتأخّر، فكتب ردّاً على الرسالة العراقيّة:

"واشنطن دي سي في 2003/3/27،

عزيزي نائب رئيس الحكومة طارق عزيز،

سأدخل معك مباشرة في الموضوع وأجيب عن نقاطك نقطة نقطة. فنحن لسنا متأكّدين من أنّكم على علاقة بمنظّمة "القاعدة" ولا بالجريمة التي نزلت بالولايات المتّحدة في 9/11. وليس لدينا دليل قاطع على أنّكم تملكون، أو لا تملكون، أسلحة محظّرة دوليّاً. مع هذا، ووفقاً لما توصّل إليه الأصدقاء "المحافظون الجدد" في إدارتنا، فإنّ سبب الإرهاب هو فقدان الديموقراطيّة في بلدانكم جميعاً. ومن بين هذه البلدان الكثيرة، قرّرنا أن نبدأ بالعراق ونجعل منه نموذجاً لباقي بلدان الشرق الأوسط. فالعراق بلد كبير وغنيّ، ولديه طبقة وسطى متعلّمة، وفيه تنوّع دينيّ وإثنيّ وطائفيّ. وهذا لئن تولّى السيّد الجلبي فتح أعيننا عليه، فالمؤكّد أنّه موجود قبله وبمعزل عنه (وبالمناسبة: هل يستطيع السيّد الجلبي، وكثيرون من العراقيّين الذين يعيشون مثله في الخارج، أن يعيشوا في العراق ويمارسوا حرّيّاتهم وخياراتهم السياسيّة؟ طبعاً لا).

صحيح أنّكم وقفتم في وجه الخميني وثورته التي دشّنت أعمالها بالاستيلاء الوحشيّ على سفارتنا في طهران. لكنّ زمن الحرب الباردة ولّى وما عدنا بحاجة إلى التحالف مع أنظمة مستبدّة لمواجهة أنظمة مستبدّة أخرى، إلّا إذا كانت تربطنا بها مصالح اقتصاديّة في غاية الأهميّة. وهذا ينطبق بدرجة أكبر على الستينات: فأميركا التي كانت تشجّع يومذاك ذبح الشيوعيّين، في العراق كما في أندونيسيا وأيّ مكان آخر، أصبحت اليوم تتعامل معهم بوصفهم ضحايا أنظمة استبداديّة فرضت علينا ظروفُ الماضي السيئ أن نحالفها. أمّا عن تذرّعكم بسبب وبلا سبب بأنّ سفيرتنا إبريل غلاسبي أعطت الضوء الأخضر لرئيسكم صدّام حسين بأن يغزو الكويت في أوائل آب/ أغسطس 1990، فهذا غباء محض في أحسن حالاته. فغلاسبي، حين قالت إنّ الولايات المتّحدة غير معنيّة بالنزاعات العربيّة-العربيّة، لم يكن يخطر في بالها، لا من قريب أو بعيد، أنّ المقصود هو احتلال الكويت. إنّ ما ورّطكم ليس الولايات المتّحدة ولا السفيرة غلاسبي بل، واعذرني على قولي هذا، غباء قيادتكم السياسيّة وعدم معرفتها بالعالم وبالديبلوماسيّة في وقت واحد.

أمّا أنّكم أردتم التخلّص من "حكم إقطاعيّ تتعارض قيمه مع القيم الأميركيّة والغربيّة المتمدّنة"، فهذا، حتّى لو قبلناه، لا يجيز لكم احتلال دولة مستقلّة. فضلاً عن ذلك، فإنّ تعارض قيمنا والقيم الكويتيّة يظلّ أقلّ من

تعارضها مع القيم التي يُحكَم بموجبها العراق حيث، وأنت أعلم منّي بذلك، لا يتوفّر الحدّ الأدنى من حقوق الإنسان والحرّيات والتعدّد. وأخيراً، وبالنسبة إلى النفط، يُستحسن تذكيركم وتذكير "المناهضين للإمبرياليّة" عندنا وعندكم، بحقيقتين لا يقلّل منهما أنّني عملت سابقاً مديراً تنفيذيّاً لإحدى الشركات: أولاهما، أنّ أيّ حرب قد نشنّها على العراق ستكلّفنا من المال ما لن يعوّضنا إيّاه نفط العراق حتّى لو احتكرناه كلّه لعشرات السنين. أمّا الثانية، فإنّنا نعلم جيّداً أنّ رئيسكم السيّد حسين مستعدّ أن يمنحنا هذا النفط كلّه من دون أيّ حرب إذا ما ضمنّا له البقاء في السلطة. هذه الخلافات، على أيّ حال، لا تلغي الدخول في "حوار صريح وشامل" بيننا.

صداقتي،

ديك تشيني".

الرسالة الثانية التي وجّهها عزيز إلى تشيني بدت أشدّ صراحة ودخولاً في صلب الموضوع:

"بغداد في 2003/4/4،

سيادة نائب الرئيس ديك تشيني،

بعد التحيّة،

لقد اطّلعت على رسالتكم وأطلعتُ السيّد الرئيس صدّام حسين عليها، وهو بدوره طلب منّي أن أحيطكم علماً بالتصوّرات والاحتمالات التي نتداولها هنا في بغداد. لكنْ قبل ذلك لا بدّ من ردّ عابر على ما اعتبرناه

إهانة لحاكم دولة ذات سيادة كالرئيس صدّام حسين. لقد وصفتم قيادتنا بـ"الغباء السياسيّ وعدم المعرفة بالعالم وبالديبلوماسيّة في وقت واحد"، ونحن من جهتنا نودّ أن نذكّركم بأنّ رئيسكم السيّد جورج دبليو بوش، طبقاً لما أوردت صحيفة **نيويورك تايمز**، لم يعرف موقع العراق على الخريطة إلّا قبل أيّام قليلة.

على أيّ حال، لا بدّ من تجاوز هذه العنعنات الصغرى. فنحن نعتقد أنّ في وسعنا أن نستعيد أجواء الصداقة التي سادت علاقتنا في الثمانينات، إبّان الحرب مع إيران، وهذا من دون أن تغيّروا أيّاً من قناعاتكم التي عبّرتم عنها في رسالتكم الأخيرة. ولأنّكم مصرّون على بناء الديموقراطيّة في المنطقة انطلاقاً من نموذج ما، فنحن نقترح عليكم ثلاثة خيارات تكون بديلاً عن خياركم العراقيّ:

هناك السعوديّة، وكما تعلمون فإنّ الذين نفّذوا 11 أيلول كانوا سعوديّين، فيما المال السعوديّ هو الذي ينشر التطرّف الإسلاميّ الوهّابيّ. وهناك إيران، وهي أصلاً، وكما حدّد رئيسكم جورج دبليو بوش، من "محور الشرّ". ودائماً، هناك سوريّا التي توجد لها أصابع في كلّ عمل إرهابيّ. إنّنا نعرف حكّام سوريّا جيّداً كما نعرف أنفسنا وندرك طبيعة عقلهم الإجراميّ الجهنّميّ (ولا تنسَ أنّ الحزب الذي يحكم هناك هو نفسه الذي يحكم هنا في العراق).

لقد ساءنا كثيراً أنّكم وضعتم العراق في "محور الشرّ" ولم تضعوا سوريّا، كما فرضتم وتفرضون علينا حصاراً جائراً (مع أنّ نظامنا استفاد منه كثيراً بالمناسبة). ويهمّني أن ألفت نظركم، يا سيادة نائب الرئيس، إلى أمر أجده غريباً: فأنتم تقولون إنّ العراق كبير وغنيّ لكنّكم، لهذا السبب، تريدون أن تعاقبوه!. إنّ العراق بلد صعب، ولا يصلح مكاناً لهذا النموذج الديموقراطيّ الذي تتخيّلونه. فهو يعجّ بالأديان والطوائف والإثنيّات، ولست أكشف سرّاً إذا قلت لكم إنّ تحرير الشيعة، وهم أكثريّة السكّان العدديّة، ستدفع بهم إلى أحضان إيران أكثر ممّا إلى أحضان الديموقراطيّة. إنّكم تجهلون الكثير عن تركيبة العراق وعواطف أبنائه، وما تعرفونه مجرّد أخطاء يزوّدكم بها الجلبي وأمثاله. كذلك فأصدقاؤكم الأكراد الذين وفّرتم لهم الحماية الجوّيّة وحرمتم العراق من فرض سلطته المركزيّة عليهم، ينقسمون إلى عشائر متنافسة، وهم، على عكس ما تصوّرونهم عليه، ليسوا سويديّين أو نروجيّين محبّين للديموقراطيّة. إنّهم سيتصارعون في ما بينهم إلى ما لا نهاية، وستتوزّع ولاءاتهم على دول المنطقة، وتاريخهم كلّه لا يدلّ إلّا على ذلك.

إنّنا، وأكرّر ما قلته سابقاً، مستعدّون أن نعطيكم ما شئتم من نفطنا، وأن نقف إلى جانبكم عسكريّاً، وبالطبع سياسيّاً وإعلاميّاً، في مواجهة أيّ واحدة من الدول الثلاث التي اقترحتها عليكم، في حال رغبتم في

ضربها. كذلك يمكننا، مستعينين بوزن العراق وإمكاناته وبصداقتنا مع صحافيّين دفعنا لهم غالياً، أن نروّج للسلام مع إسرائيل، وهو ما يهمّكم كثيراً، وأن نضع حدّاً لسياساتنا المتطرّفة القديمة (وهي بالمناسبة لم تكن سوى هواء ساخن نستخدمه ضدّ سوريّا ولتدجين الفلسطينيّين، وليس أبداً لإيذاء إسرائيل. ونذكّركم بأنّ قوّاتنا في الأردن عام 1970 أتاحت للجيش الأردنيّ أن يتقدّم لتصفية قوّات "منظّمة التحرير الفلسطينيّة").

أمّا في شأن الديموقراطيّة، التي لا نفهم في الحقيقة مدى سحرها عليكم، فقد فاتكم وجود "جبهة وطنيّة وقوميّة تقدّميّة" على رأسها الرفيق نعيم حدّاد، هي التي تحكم العراق. مع هذا فنحن على استعداد لأن نوسّع هذه الجبهة قليلاً بحيث تضمّ الجلبي وبضعة أشخاص آخرين يشبهونه.

لكنْ إذا رفضتم عروضنا، يا سيادة نائب الرئيس، فنحن لن نفتقر إلى أوراق قويّة ندافع بها عن أنفسنا. أكتفي هنا بمثلين يُستحسن بكم أن تفكّروا قليلاً فيهما: إنّنا مستعدّون أن نُشعل المنطقة كلّها بتجديد الصراع مع إسرائيل. وإذا صحّ أنّ السوريّين والإيرانيّين هم الذين يسيطرون اليوم على الحدود اللبنانيّة-الإسرائيليّة، فهذا لن يمنعنا من العثور على وسائل وممرّات أخرى لن تُستثنى منها العمليّات في الخارج. وأنتم سمعتم من غير شكّ أسماء أشخاص ككارلوس ووديع حدّاد وأبو نضال ممّن نستطيع أن نصنع أمثالهم

في أيّ وقت. فإذا أضفنا إلى ذلك قيامنا بحملة إعلاميّة وسياسيّة مكثّفة حول تحرير فلسطين، وعبّأنا حولها الجماهير العربيّة والإسلاميّة، أمكننا أن نُلحق أفدح الأذى بسياساتكم ومصالحكم في المنطقة. حملة كهذه يمكن أن يتولّاها وزير إعلامنا محمّد سعيد الصحّاف الذي يتمتّع بقدرات هائلة تقلب الأبيض أسود والأسود أبيض.

أمّا الشيء الآخر، فهو أنّ سجوننا تمتلئ بمن نسمّيهم "مجانين الدِين". هؤلاء نعاملهم بقسوة وخشونة تجعلانهم أشدّ تطرّفاً، بل مجانين فعليّين يتعاملون مع أجسامهم كقنابل موقوتة صالحة للتفجير في وجه أيّ عدوّ. وسوف يكون في وسعنا دائماً إطلاق هؤلاء وبرمجتهم بحيث يستهدفون الأميركيّين والغربيّين، ليس في منطقتنا فحسب، بل في بلدانكم نفسها أيضاً. وأنتم، يا سيادة نائب الرئيس، لا تستطيعون أن تتخيّلوا كيف يهتاج هؤلاء حين تُذكر أمامهم كلمات كـ"صليبيّ" و"يهوديّ" و"كافر". إنّهم أسلحةٌ لن ينجح حتّى احتلالكم لبلدنا في مكافحتها، هذا إن لم نقل إنّ احتلالاً كهذا يُفرحهم لأنّه يقرّب جنودكم منهم. إنّهم ينتظرون قدومكم بلهفة، ولهذا فإنّ الحكمة تستدعي عدم احتلالكم العراق. فكّروا بذلك، وتفضّلوا بقبول احترامي.

طارق عزيز".

وبدوره ردّ ديك تشيني:

"واشنطن دي سي في 2003/4/9،

عزيزي نائب رئيس الحكومة طارق عزيز،

هذه ستكون آخر مرّة أكاتبك فيها، لأنّني بث على يقين بأنّ ما من شيء، مطلق شيء، يجمع بيننا، وما من شيء بالتالي يمكن أن نتحدّث فيه.

باختصار أقول: إنّ اختيار العراق لا يعني استبعاد إيران وسوريّا، فدورهما آتٍ، علماً أنّنا نظنّ أنّ النموذج العراقيّ الجديد هو بذاته سيتولّى أمرهما. أمّا السعوديّة، فتقع في قلب دائرة المصالح الأميركيّة والغربيّة، ما يجعل هزّها أمنيّاً ذا تأثير سلبيّ بالغ على العالم بأسره. مع هذا، فنحن نظنّ أنّ تحوّلاً كبيراً في العراق، يليه تحوّلان مماثلان في سوريّا وإيران، سوف يغيّر وضع السعوديّة إلى الأحسن. هذا في شبه المؤكّد.

وأمّا أن تقارنوا رئيسكم برئيسنا، فهذا ذروة الوقاحة. فالمدعوّ صدّام حسين هو الذي أهداه خاله السيّد طلفاح خير الله مسدّساً عند نيله الشهادة الابتدائيّة، وكان أوّل ظهور عامّ له محاولته اغتيال رئيسكم آنذاك عبد الكريم قاسم، التي لجأ بعدها جريحاً إلى سوريّا. هذه ليست تربية رئيسنا المنتخب. وبحقّ الله لا تقل لي إنّ المدعوّ نعيم حدّاد هو الذي يحكم بلدكم على رأس "جبهة" تمثّل العراقيّين. وأخيراً، فإنّ تذرّعكم بوجود الطوائف والإثنيّات في العراق لا يقدّم ولا يؤخّر. فهذا الوجود ينتشر على مدى منطقتكم بكاملها، ومن الخطأ كلّيّاً أن تُستخدم هذه الحجّة استشراقيّاً واستعماريّاً لاستخلاص الاستحالة الديموقراطيّة في ربوعكم. يبقى

أن أقول إنّ تهديدكم لنا بالإرهابيّين وبمن أسميتَهم "مجانين الدين" لن يُخيفنا بتاتاً. والحريّ بكم في هذه اللحظة أن تشعروا أنتم بالخوف فيما الأرض تهتزّ تحت أقدامكم.

ديك تشيني".

وما أن أنهى طارق عزيز قراءة الرسالة حتّى كان ضابط عراقيّ يدفعه دفعاً نحو الملجأ الواقع في قبو القصر المخصّص له. ذاك أنّ الطائرات الأميركيّة كانت تحلّق في سماء بغداد وتمطر عاصمة الرشيد بالقنابل والصواريخ.

حين تصالح البعثان واتّحد العراق وسوريّا

يوم 18 تمّوز/ يوليو 1968، بعد يوم واحد على استيلاء البعثيّين على السلطة في العراق، حطّت في مطار بغداد طائرة سوريّة حملت على متنها قادة النظام البعثيّ في دمشق: رئيس الجمهوريّة نور الدين الأتاسي ورئيس حكومته يوسف زعيّن ووزير الخارجيّة إبراهيم ماخوس ووزير الدفاع حافظ الأسد والأمين العامّ للقيادة القطريّة للحزب صلاح جديد ونائبه عبد الكريم الجندي. مستقبلوهم في بغداد كانوا قادة النظام الجديد: أحمد حسن البكر الذي يُرجّح أن يتسلّم رئاسة الجمهوريّة، وصدّام حسين التكريتي الذي يُتوقّع أن يُسمّى نائباً للرئيس، وكبار الحزبيّين الذين ستوزّع عليهم الوزارات والمناصب العليا في العهد الجديد: صالح مهدي عمّاش وحردان التكريتي وسعدون حمادي وطارق عزيز وعبد الخالق السامرّائي وناظم كزار.

لم يُعرف بالتمام أين انعقد الاجتماع الطويل بين الوفدين الحزبيّين، لكنْ في مساء ذاك اليوم أذاع راديو بغداد ما يلي: "بنتيجة اللقاء بين الرفاق البعثيّين الذين يقودون القطرين العراقيّ والسوريّ، والذي استُهلّ بتهنئة الرفاق السوريّين للرفاق العراقيّين بانتصار الثورة المباركة، تقرّر التالي: أوّلاً، يعاد فوراً توحيد الحزب في القطرين في ظلّ قيادة قوميّة واحدة يرأسها المؤسّس والقائد المعلّم الرفيق الأستاذ ميشال عفلق. وفي انتظار

انعقاد انتخابات حزبيّة، ستضمَ القيادة الانتقاليّة الرفاق صلاح الدين البيطار وصدّام حسين التكريتي وصلاح جديد وحافظ الأسد وعبد الخالق السامرّائي. ثانياً، يُعلَن عن تأسيس "جمهوريّة العرب المتّحدة" التي سيكون القطران الشرقيّ العراقيّ والغربيّ السوريّ نواة لها، على أن تنضمّ إليها بقيّة الأقطار لاحقاً. ثالثاً، يُسمَى الرفيق أحمد حسن البكر رئيساً لجمهوريّة العرب المتّحدة، والرفيقان نور الدين الأتاسي وصدّام حسين التكريتي نائبين للرئيس. رابعاً، يُكلّف الرفيق يوسف زعيّن تشكيل الحكومة التي سيتولّى الرفيق صالح مهدي عمّاش نيابة رئاستها".

بعد يومين أصدرت القيادة القوميّة ما أسمته البلاغ الثوريّ الرقم 1، وجاء فيه أنّ عقوبة الإعدام ستكون جزاءً كلّ من يتلفّظ بتعابير تدلّ على هويّة دينيّة أو طائفيّة أو إثنيّة (مسلم، سنّيّ، شيعيّ، علويّ، مسيحيّ، كرديّ...)، إذ كلّ فرد في جمهوريّة العرب المتّحدة "مواطنٌ عربيّ" فحسب. وبعد يوم أصدرت البلاغ الثوريّ الرقم 2 ويقضي بالسجن المؤبّد مع الأشغال الشاقّة على كلّ من يعرّف شخصاً أو شيئاً بمنطقة من المناطق (دمشقيّ، حلبيّ، حمصيّ، بغداديّ، مصلاويّ، نجفيّ...).

"الإنسان العربيّ الجديد" و"وحدتنا قوّة للعرب"... هاتان هما العبارتان اللتان طُليت بهما الجدران وغصّت بهما حناجر الخطباء والمذيعين ومعلّمي المدارس

وخطباء الجمعة في سوريّا والعراق. وهما أخضعا لشرح تولّاه كبار مفكّري الحزب ممَن شكلوا لجنة رأسها إلياس فرح، وجاءت صياغة الشرح على النحو التالي: "المقصود بـ"الإنسان العربيَ الجديد" إنهاء التجزئة بكلّ أنواعها. فإزالة الحدود لا تكتمل من دون إزالة باقي التشوّهات التي علقت بالعرب وفرضت عليهم هوّيّات زائفة. إنّ العربيَ الجديد يولد من عدم وتتولّى العروبة وحدها ملأه بالمعنى. أمّا المقصود بـ"وحدتنا قوّة للعرب"، فإنّ العرب سيمارسون حقّهم في السيادة على منطقتهم، وبسيادة هذا الحقّ وحده يمكن للمنطقة أن تعيش في سلام وبحبوحة واستقرار".

البلدان العربيّة الأخرى تعاملت مع هذا الحدث الوحدويّ على نحو مختلف تماماً. ففي مصر، شنّت إذاعة "صوت العرب" هجوماً لاذعاً على "الوحدة المزعومة" التي لا يُقصد منها إلّا "التآمر على قيادة جمال عبد الناصر الوحدويّة"، فيما كتب محمّد حسنين هيكل في مقالته الأسبوعيّة التي تحمل عنواناً جامعاً هو "بصراحة"، ناعياً "الوحدة حين يقيمها انفصاليّون". أمّا اللبنانيّون والأردنيّون، فلم يستطيعوا التغلّب على مخاوفهم، إذ عبّروا عنها بصراحة بالغة: فقد ألقى الملك حسين خطاباً هنّأ فيه "الأخوة السوريّين والعراقيّين بالوحدة التي سعى إليها أجدادي"، مضيفاً: "لكنّ أخطر ما قد يقع فيه الوحدويّون هو الانتشاء بفكرة القوّة التي لا تفعل سوى بثّ الخوف في مَن هم أصغر

وأضعف، ودفعهم إلى كراهية تلك الوحدة التي تتحوّل، في نظرهم، إلى مجرّد مشروع عدوانيّ". وبدورهم تحدّث قادة مسيحيّون لبنانيّون عن أنّ وحدة بين سوريّا والعراق لا تفضي، في آخر المطاف، إلّا إلى إخضاع لبنان والأردن. ووفقاً لكتائبيّ شابّ اسمه ميشال سماحة، استصرحته صحيفة **النهار** اللبنانيّة، "فإنّ هذا الشيء الذي يسمّونه "حركة تحرّر عربيّة" لا يعني إلّا تركيع لبنان والأردن من قبل سوريّا والعراق". أمّا فلسطينيّاً، فلا يبدو الأمر أحسن. فـ"الناطق بلسان الثورة الفلسطينيّة" المدعوّ "أبو عمّار" اعتبر، في تصريح أدلى به إلى صحيفة **الحياة** اللبنانيّة، أنّ "المحكّ الفعليّ لهذه الوحدة هو مدى إتاحتها الفرصة للفلسطينيّين أن يحرّروا فلسطين. لكنّنا نخشى أن تُستعمل القوميّة العربيّة لحرمان الفلسطينيّين قرارهم الوطنيّ المستقلّ. وفي خبر نقلته **الحياة** في عددها نفسه أن حكّام جمهوريّة العرب المتّحدة يفكّرون في إنشاء منظّمة فدائيّة بعثيّة يسمّونها "صاعقة التحرير العربيّة"، يتولّى قيادتها الشكليّة بعثيّون فلسطينيّون كزهير محسن وعبد الوهاب الكيّالي فيما يبقى قرارها الفعليّ في يد القيادة القوميّة لـ"حزب البعث". وقد تردّدت في مقاهي بيروت دعابة نُسبت إلى الوجيه البيروتيّ منح الصلح، مفادها أنّ الذين يحرّمون استخدام كلمات كدمشقيّ وبغداديّ لن يُصدروا أقلّ من

حكم إعدام على مَن يقول فلسطينيَ أو لبنانيَ أو أردنيَ!

أوضاع الخليج وتّرها أيضاً قيام الوحدة العراقيّة- السوريّة. الكويت خصوصاً أصابها ذعر راحت تتناقله أحاديث ديوانيّاتها الكثيرة. ذاك أنّ الكويتيّين لم ينسوا بعد محاولة عبد الكريم قاسم، قبل سبع سنوات، احتلال إمارتهم. ولأنّ قوّة العراق تُقلقهم حتّى لو لم يتّحد بسوريّا، وحتّى لو لم يحكمه حزب قوميّ يعتبر الكويت فرعاً من أصل، فإنّ الأوضاع الجديدة حملت أميرهم الشيخ صبّاح السالم الصبّاح على القيام بجولة أسمتها الصحافة الكويتيّة "جولة طمأنة وبحث عن حماية وضمانات". هذه الجولة يُفترض أن تشمل الرياض والقاهرة وطهران وأنقرة ولندن وواشنطن.

لكنّ المخاوف ما لبثت أن تعدّت خريطة العالم العربيّ، لاسيّما مع تلاوة رئيس الحكومة يوسف زعيّن بيان حكومته إذ تعهّد "تحرير فلسطين وتدمير الكيان الصهيونيّ، وتحرير عربستان التي أسماها الاحتلال الإيرانيّ خوزستان، وتحرير لواء الإسكندرون الذي أسماه الاحتلال التركيّ هاتاي". ويبدو أنّ صدّام حسين التكريتي وحافظ الأسد، وهما أشدّ قياديّي البعث إدراكاً لشروط الحفاظ على السلطة، عاتبا زعيّن على هذه الفقرة فكان جوابه: "هذا مجرّد كلام لإحراج عبد الناصر أمام الجماهير العربيّة، لكنّ أيّاً من الدول لن تحمله على محمل الجدّ". لكنّ الدول كلّها حملته على محمل الجدّ،

بدلالة المؤتمر الطارئ الذي دعا إليه شاه إيران في طهران وحضره، فضلاً عنه، ليفي إشكول، رئيس حكومة إسرائيل، وسليمان ديميريل، رئيس حكومة تركيا. وقد جاء البيان الصادر عن القادة الثلاثة ليثير أوسع القلق لدى حكّام جمهوريّة العرب المتّحدة، إذ أكّد أنّ "دولنا الثلاث تضع كلّ الخيارات على الطاولة، بما فيها الخيار العسكريّ، دفاعاً عن سيادتنا الوطنيّة وعن وجودنا نفسه". أمّا الخبر الذي لا يقلّ خطورة، فهو ذاك الذي نقلته صحيفة **إنترناشونال هيرالد تريبيون** عن "مصادر في طهران أصرّت على عدم ذكرها بالاسم". مفاد الخبر أنّ ثمّة مقرّرات سرّيّة توصّل إليها القادة الثلاثة أهمّها "السعي إلى توريط حلف "الناتو" في هذا النزاع، وإلى الاستخدام النشط لصداقاتنا داخل سوريّا والعراق ممثّلةً بالجماعات المتذمّرة من هذه الوحدة العربيّة ونظامها الأحمق". وممّا تسرّب عن كواليس السلطة البعثيّة أنّ صدّام وحافظ، بعد أن سمعا بتلك المقرّرات الخطيرة، هاجما زعيّن في مؤتمر للقيادة الحزبيّة، ثمّ هجما عليه، فحاول صدّام أن يخنقه بيديه فيما ركله الأسد على خصيتيه، لكنّ الآخرين عاجلوا إلى إنقاذه.

فوق هذا لم تعد تذمّرات الداخل المتصاعدة سرّاً. فالأكراد في شمال العراق، وإلى حدّ ما في شمال سوريّا، لم يُخفوا تململهم من هذا التعريب الكاسح الذي يحرّم عليهم استخدام تعبير "كرديّ". ويبدو أنّ الزعيم الكرديّ العراقيّ الملّا مصطفى البارزاني كان بالغ

الصراحة في لقائه الأخير مع أحمد حسن البكر، إذ قال: "لم تكتفوا بضمّنا بالقوّة إلى عرب العراق في العشرينات، فأنتم تضمّوننا اليوم إلى عرب سوريّا أيضاً بما يجعلنا أقلّيّة أصغر فأصغر". وتبعاً لصحافيّ فرنسيّ، هو جون بيار ميدييه، جال في وسط العراق وجنوبه، هناك غضب واضح لأنّ "الأكثريّة السنّيّة في سوريّا سوف تعدّل التركيب السكّاني السنّيّ-الشيعيّ لغير مصلحة الشيعة". ويضيف ميدييه أنّه شاهد تظاهرة صغرى في مدينة النجف ترفع يافطات تحيّي "الإنسان القديم" ضدّاً على "الإنسان الجديد"، وتصرّ على الهويّة النجفيّة والشيعيّة، لكنّها أغرقت بحمّام دمويّ أنكرته السلطة البعثيّة كلّيّاً. أمّا في بغداد نفسها، فعبّر أحد المسنّين في منطقة الأعظميّة السنّيّة عن حال الاستياء والغضب التي تعمّ بعض الأوساط البغداديّة. فقد جلس على الرصيف باكياً ولاطماً وجهه بكفّيه وهو يردّد ويعيد: "بلد حضارات ما بين النهرين صار قطراً. يا لله! ليتني لم أعش لأرى هذا اليوم". ويبدو أنّ بعثيّاً لبنانيّاً شابّاً اسمه معن بشّور مرّ به في تلك اللحظة وحاول التخفيف عنه وإقناعه بأنّه صار إنساناً جديداً ينتسب إلى أمّة ذات رسالة خالدة، فما كان من الشيخ العراقيّ إلّا أن ضربه بعصاه، بحيث ركض بشّور هارباً فيما لحق به المسنّ العراقيّ مسافة أمتار عدّة.

والأمور لا تختلف كثيراً في سوريّا: فالدمشقيّون يقولون إنّهم لم يتحمّلوا الوحدة مع مصر التي نقلت

العاصمة إلى القاهرة، فكيف يتحمّلون الوحدة مع العراق التي جعلت من بغداد عاصمة لهم. أمّا الحلبيّون، فيقولون إنّهم لم يتحمّلوا أن تكون دمشق عاصمتهم فكيف يتحمّلون بغداد. ويُسمع بين فينة وأخرى بعض الهمس من أنّ الذين ثاروا قبل سبع سنين على الوحدة مع مصر لن يتردّدوا في الثورة على وحدة مع العراق. ذاك أنّ الوحدة، كما قال منفيّ سوريّ في بريطانيا حاول أن يشرح الأمر لأحد صحافيّي **تايمز** اللندنيّة، "هي شيء تشتهيه لغيرك لكنْ ليس لنفسك. فليتّحد المصريّون والسودانيّون، أو الجزائريّون والمغاربة، أو اليمنيّون والسعوديّون، أمّا نحن، فليتركونا بحالنا". لكنّ الأستاذ ميشال عفلق، وعلى ذمّة ما كتبه الصحافيّ الفرنسيّ الشهير إريك رولو، بات أكثر اقتناعاً من أيّ وقت مضى بأنّ الوحدة العربيّة هي ما يوفّر للمنطقة "العيش في سلام وبحبوحة واستقرار".

السبب الحقيقيّ وراء مقتل بشير الجميّل

حين أقدم حبيب الشرتوني على قتل الرئيس اللبنانيّ المُنْتَخَب، بشير الجميّل، لم تكن السياسة والحزبيّة وراء قراره. المعلومات التي تجمّعت أخيراً من مصادر عدّة تقطع ببطلان الرواية الرائجة عن الاغتيال.

القصّة تعود إلى مطالع 1980، وكانت انقضت سنوات أربع على انضمام الشرتوني إلى "الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ". ففي تلك السنة، وكان له من العمر 22 عاماً، بدأ الشابّ يتغيّر، لا سياسيّاً فحسب بل شخصيّاً أيضاً. تغيّرُه نجمَ عن بضعة أسباب في عدادها أنّه قضى في فرنسا أشهراً تركت بصمات واضحة عليه. لكنّ السبب الأقوى بالتأكيد كان قراءاته الروايات والمسرح وتعرّفه على الفنون، وهو ما أولع به فدفعه إلى زيارات لم تنقطع للمعارض والمتاحف. وتأثّراً فيما قرأ وشاهد، وهو كثير، تحصّلت لديه ذائقة جماليّة تأخذ الحياة بمرونة أكبر، فيما تشوبها أفكار تتعاطف مع الضعيف والمنبوذ، وتمجّ العسكرة والزعماء الأقوياء الذين يتباهون بالمجد والنظام والعنفوان. أمّا فرنسا تحديداً، وبسبب إقامته في حيّ جزائريّ فقير من أحياء عاصمتها، فشحذت لديه إحساساً لم يعرفه من قبل بمسألة العنصريّة. ويبدو أنّ حبيب تعرّف هناك إلى شبّان وشابّات من اليهود الفرنسيّين الذين يناضلون ضدّ

العنصريّة، كما تُمارَس حيال السود والعرب، فانجذب إلى بعضهم.

وتسارعت خطى التغيير الذي راح يعصف بالشرتوني الشابّ. فـ"الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ" لم يعد يخاطبه في شيء. مبادئ الحزب وعقائده صارت تبدو له غريبة ومُنفِّرة، وبعضها مكروه، لاسيّما آراء زعيمه أنطون سعادة في الرؤوس المفلطحة والرؤوس المستطيلة، وفي اليهود الذين لعنهم من غير تمييز، ناهيك عن تفسيره انحطاطَ قرطاجة الذي نجم، في رأيه، عن التزاوج مع السود. وهو كرهَ الطبيعة العسكريّة والمراتبيّة الحادّة في الحزب، وتمجيد الجيش القويّ، وفكرة "المدى الحيويّ" التي حملت سعادة على ضمّ جزيرة قبرص، اليونانيّة-التركيّة، إلى "الأمّة السوريّة". لكنّه كره خصوصاً شخصيّة سعادة الذي سمّى نفسه زعيماً مطلق الصلاحيّات في حزبه، وكان يذكر اسمه في صيغة الشخص الثالث، كما اعتبر الانتماء إلى الحزب تعاقداً حصريّاً معه. ولم يعد حبيب يستسيغ تصدّي سعادة للمسائل كافّة وإصداره الفتاوى القاطعة فيها، بالقليل من المعرفة والكثير من الأخطاء. فهو العارف الحاسم بشؤون الفلسفة والتاريخ والتطوّر والعلم والفنّ والأدب والعسكر وطبقات الأرض وأتربتها.

مع ذلك لم يبح الشرتوني، وهو منكفئ قليل الكلام عموماً، بخبر المراجعات التي أجراها بينه وبين نفسه، أو بالأفكار الجديدة التي جعل يتوصّل إليها تباعاً. فهو

كان يدرك أنّ الوسط الذي يعيش فيه والأصدقاء الذين يحيطونه منذ سنوات هم كلّهم سوريّون قوميّون، فإذا صارحَهم بالأمر انتهى معزولاً تماماً وعرضةً لما سمّاه رفقاؤه الحزبيّون "مقاطعة حياتيّة".

لكنّه آثر أن يقلّص نشاطه الحزبيّ إلى الحدّ الأدنى، مكتفياً بالعضويّة ومتذرّعاً، في تبرير ذلك، بالانصراف إلى التثقيف الذاتيّ على نحو يفيد الحزب والعقيدة. وبالفعل صدّقه رفقاؤه الذين لاحظوا أنّه ما إن يعود من عمله حتّى ينكبّ على القراءة وعلى كُتب لا يفقهون شيئاً من مضامينها. لقد قالوا إنّهم يستثمرون في حبيب الذي سترتدّ ثقافته على الحزب وتُغنيه بالأفكار.

لكنْ في ذلك اليوم، يوم 24 آب/ أغسطس 1982، وبعد أقلّ من 24 ساعة على انتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهوريّة اللبنانيّة، طلبه مسؤوله الحزبيّ نبيل العلم وقال له بالحرف: "هذه لحظة مصيريّة يا رفيق حبيب. يمكنك أن تعود في أيّ وقت إلى قراءتك وكتبك، أمّا الآن، فالأمّة تطلب منك أداء مهمّة لا يستطيع أداءها سواك. فنحن نعلم أنّ بيت جدّك، حيث تقيم أنت وأختك، يقع في البناية التي يقع فيها بيت "حزب الكتائب" في الأشرفيّة. طابق بيتهم الذي يتردّد عليه بشير الجميّل تحت طابق بيتكم، وأنت وحدك مَن يستطيع الوصول إلى هذا العميل اليهوديّ وتصفيته، ومن ثمّ صيانة شرف الأمّة. إنّ قيامة الأمّة وسقوطها مرهونان بك أنت". وفيما أصيب الشرتوني بشيء من

الجمود والارتباك، ناوله العلم ما زِنَته عشرات الكيلوغرامات من المتفجِّرات قال إنّ ضابط مخابرات سوريّاً سلّمه إيّاها لهذا الغرض: "يمكنك، يا رفيق حبيب، أن تزرعها في مكان ما من البناية ثمّ تفجّرها حين يأتي بشير. تستطيع أن تفجّرها من مكان بعيد، كمحلّة الناصرة مثلاً، بعد أن تخترع كذبةً ما تُقنع بها أقاربك كي يغادروا المنزل في ذاك الوقت. وبالمناسبة، لقد علمنا أنّ بشير سوف يزور هذا البيت قبل تسلّمه رئاسة الجمهوريّة، لأنّه بدأ حياته الحزبيّة والميليشيويّة فيه، وهناك سوف يلقي خطبة وداعيّة لمحازبيه إذ يفرض عليه منصب الرئاسة التخلّي عن الانتساب العلنيّ إلى حزبه. الزيارة سوف تتمّ، وفق ما ذكرتْ مصادرنا، يوم 14 أيلول/ سبتمبر المقبل. تدرّبْ جيّداً على العمليّة وفكّر في تفاصيلها ودقّتها. الصاعق يمكن إيداعه في بيت الرفيق هانيبعل الأشقر في الناصرة. تحيا سوريا ويحيا سعادة".

وقف العلم فوقف الشرتوني. تبادلا تأدية التحيّة الحزبيّة وافترقا.

حبيب فكّر بأنّه يستطيع خلال الأيّام العشرين الفاصلة عن موعد التنفيذ أن يتدبّر طريقة ما يتنصّل فيها من الموضوع كلّه. قد يتمارض مثلاً، أو ينتقل إلى السكن في مكان آخر حيث لا يعرفه أحد، وقد يسافر إلى الخارج، أو يترك الحزب كلّياً، وهذا سيكون أخطر الخيارات إن لم يُرفقه بالاختفاء التامّ عن أنظار

الحزبيّين. ذاك أنّ نبيل العلم أطلعه على سرّ يكفي لقتله.

في اليوم التالي، أفاق وفي رأسه فضول حادّ يستولي على صباحه. الفضول أرجعه، عبر طريق التفافيّة، إلى الاهتمام بالسياسة: "لا بدّ أن أعرف المزيد عن بشير الجميّل هذا... عن بشير الذي طُلب منّي أن أغتاله".

هكذا صار حبيب يسمع الأخبار بدأب ويتابع خصوصاً خطابات بشير الكثيرة في تلك الأيّام، كما يشاهده على التلفزيون وهو يلقيها. صار يحدّق في صوره المعلّقة على جدران الأشرفيّة وفي زواريبها، كما يحاول أن يسمع ما يقوله الناس عنه، حين يتحدّثون في السياسة، من أجل أن يفهم موقفهم من الرئيس المنتخَب. صار بشير الجميّل يلازمه، بل يسكنه، في معظم ساعات نهاره وفي ساعات الليل التي يخونه النوم فيها.

وللوهلة الأولى تعادلت المحطّات التي عرفها، والتي تعرّف إليها، في حياة بشير. فقد تأثّر كثيراً بمقتل طفلته مايا، ابنة الثمانية عشر شهراً، قبل عامين، وتفهّم قتاله في الأشرفيّة عام 1978 ثمّ قتاله في زحلة لأنّه كان، في الحالتين، يدافع عن سكّان مدنيّين في مواجهة القوّات السوريّة. وحبيب، بالمناسبة، لم يكن يطيق حاكم سوريّا حافظ الأسد. لقد رأى فيه مستبدّاً تافهاً وديكتاتوراً من أسوأ السياسيّين الذين يمقتهم، وكثيراً ما احتقر تلك الواقعيّة الحديديّة التي كان رفقاؤه

القوميّون ينسبونها إليه ويتغزّلون بها، وعزاها إلى قسوة غير إنسانيّة وقطيعة كاملة مع عالم الأدب والمخيّلة. وهذا ما جعل الشرتوني يتسامح مع علاقة بشير بالإسرائيليّين لأنّها، وإن كانت سيّئة، ليست أسوأ من علاقات خصومه بالمخابرات السوريّة التي يعرف أفعالها.

لكنّ بشير، من جهة أخرى، حرّك فيه عدداً من مشاعر البغض التي زكّتها أعماله الدمويّة. فهو الذي أمر بالقتل يوم "السبت الأسود" في مرفأ بيروت إبّان حرب السنتين. عشرات الأبرياء الآمنين قضوا يومذاك وهم يقصدون أعمالهم وربّما بيوتهم. وهو، بعد سنتين، مَن أمر بتنفيذ جريمة إهدن حين قُتل توني فرنجيّة وزوجته وطفلته وبعض أنصاره. ثمّ بعد سنتين أخريين أنزل مذبحة جديدة بالشمعونيّين في شاليه الصفرا. هذه وغيرها من أعمال مشابهة تثقل على كلّ ضمير، فكيف على كائن شديد الحساسيّة حيال العنف كحبيب الشرتوني؟

ما دفعَ حبيب إلى حسم موقفه لم يكن الأحداث على جسامتها، وهي التي تعادلَ فيها التعاطف والامتعاض. ما دفعه كان حالةً بعينها، حالةً لم يعد يطيقها، إذ راحت تضغط على صدره وتنمّ عن نفاد الصبر وعدم الاحتمال. فبشير حين يتحدّث باسم اللبنانيّين جميعاً، وهذا كذب، لأنّه لا يمثّل إلّا فئة من فئاتهم. وهو يُكثر من استخدام إصبعه السبّابة وتوجيه اللبنانيّين بها، بمن

فيهم أولئك الذين يفوقونه علماً وخبرة وتجربة وعمراً، وهم كثيرون جدّاً.

الحسم والجزم في كلامه صارا يُتعبانه. صوته المرتفع وتكراره العصبيّ لمعانٍ قليلة وبالغة العاديّة جعلاه يتوقّع أن تودي به ذبحة قلبيّة تُريحه من مهمّة قتله. "المرجلة" ووعوده بخلق إنسان جديد ذكّراه بما يقوله السوريّون القوميّون. دعوته المُلحّة إلى احترام النظام والأوامر والسلطة ذكّرته بأنطون سعادة الذي كان ينشر هذه الدعوة بالفصحى فيما يبثّها بشير بالعاميّة. قوميّته اللبنانيّة لا تختلف في روحها عن القوميّة السوريّة. الأغاني والأهازيج التي تحتفل به وبلبنانه تشبه الأغاني والأهازيج التي تمجّد سعادة وسورياه. الميل الناشئ إلى عبادته يذكّر بعبادة حافظ الأسد المفروضة على شعبه.

قوله "السوريّ" و"الفلسطيني" كان من أكثر ما مقتَه حبيب إذ رآه تعبيراً عنصريّاً يطوي الجمع في جبّة الحاكم، إذ هل "السوريّ"، كما تساءل في نفسه، هو حافظ الأسد أم الذين قتلهم الأسد في مدينة حماة قبل بضعة أشهر؟ كذلك كان يمجّ ما يكتبه بعض الصحافيّين اللبنانيّين الذين تبنّوا هذا الوصف الأبله وظنّوه إبداعيّاً، فباتوا يتحدّثون عن "الأميركيّ" و"الروسيّ" و"الإسرائيليّ" و"الإيرانيّ" قاصدين حكّامهم. وإذ قال بشير على جاري عادته: "الفلسطينيّ يقول"، ترجم حبيب التعبير إلى Le Palestinien dit، وبالإنكليزيّة

إلى The Palestinian says، وضحك كثيراً لأنّ العبارة لا تفيد، بأيّ لغة أخرى، أيّ معنى.

كلّ هذا رآه الشرتوني الشابّ منافياً للذوق والحساسيّة قبل أن ينافي العقل والمنطق. لكنّ خطاب بشير في لقائه مع الفنّانين هو ما أزال كلّ تردّد لديه. فالرئيس المُنتخَب، بعد تلاوته عدداً من الكليشيهات المعهودة، وبعد استعراضه سماجة أناهُ المنتفخة، طالبهم: "بدنا يّاكم تعملولنا شويّة غناني حلوة". هنا قرّر حبيب. هنا صمّم. هنا نفّذ: "لا بدّ من القضاء عليه... إنّه شيء لا يُطاق في قلّة الذوق والبشاعة".

يوم 14 أيلول/ سبتمبر قضاه على النافذة يراقب القادمين إلى البناية. ما إن دخل بشير ومرافقوه حتّى توجّه إلى بيت هانيبعل الأشقر في الناصرة. ضغط على زرّ الصاعق فانقتل بشير و26 كتائبيّاً كانوا يصفّقون له في تلك اللحظة.

عودة الإمام الصدر من ليبيا...

غصّ مطار بيروت بالوفود الشعبيّة التي راحت تتدفّق من محافظتي الجنوب والبقاع، ومن منطقة جبيل في جبل لبنان، وطبعاً من ضاحية بيروت الجنوبيّة التي يقع المطار في نطاقها.

أعلام "حركة أمل" الخضراء وصور مؤسّسها العائد السيّد موسى الصدر غطّت عدداً من شوارع العاصمة. شبّان متحمّسون أتوا يهتفون للإمام وعودته. سيّدات من الجنوب والبقاع كنّ يزغردن. الفرحة عمّت الجميع برجوعه من ليبيا.

الرئيس اللبنانيّ إلياس سركيس وقف على رأس المستقبلين، يحيط به رئيس حكومته شفيق الوزّان ونائبه ووزير الخارجيّة فؤاد بطرس وباقي الوزراء، كذلك حضر عشرات النوّاب، وإن لوحظ غياب رئيس المجلس كامل الأسعد.

الكاميرات توزّعت بين سركيس والوزّان ونبيه برّي، الذي تولّى رئاسة "حركة أمل" قبل أشهر قليلة، وحسين الحسيني الذي تولّى رئاسة الحركة بعد خطف الصدر في ليبيا وبقي في رئاستها قرابة عامين، والشيخ محمّد مهدي شمس الدين، نائب الصدر في رئاسة "المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى"، وبالطبع كان هناك قائد "منظّمة التحرير الفلسطينيّة" ياسر عرفات، وقادة القوّات السوريّة في لبنان. كلّ هؤلاء وسواهم من

الزعماء اللبنانيّين من سائر الطوائف كانوا بين المستقبلين. كبار سياسيّي المنطقة الشرقيّة المسيحيّة، كالرئيس السابق كميل شمعون ونجليه دوري وداني، ورئيس "حزب الكتائب اللبنانيّة" بيار الجميّل ونجليه أمين وبشير، حضروا أيضاً بعد وساطة أجراها الرئيس سركيس مع الأطراف السوريّة والفلسطينيّة التي تسيطر على أمن المنطقة الغربيّة المسلمة.

الطرقات أنيرت بعد أيّام من انقطاع الكهرباء في معظم العاصمة وضواحيها. الفنادق التي كانت مهجورة غصّت بالمراسلين الأجانب الذين جاؤوا لتغطية الحدث. المطاعم المنتشرة بين بيروت والمطار أعلنت أنّها ستقدّم الطعام في ذاك اليوم مجّاناً لمن يريد.

أخيراً، وبالضبط في تمام السابعة مساء، يوم التاسع من كانون الأوّل/ ديسمبر 1981، أطلّ الصدر على مُستقبليه. طلّته المحبّبة ونظرته التي تفتن الكثيرين لا تزالان على حالهما، لكنّه بدا، هو النحيل أصلاً، كأنّه خسر عشرة كيلوغرامات من وزنه. رفع يده اليمنى مُحيّياً ما إن انفتح باب الطائرة، فيما كان يظهر من ورائه رفيقا رحلته المنكودة الشيخ محمّد يعقوب والصحافيّ عبّاس بدر الدين.

لقد قرّر الصدر، يتبعه رفيقاه، أن يعبر الطريق من الطائرة إلى المطار مشياً، وكانت كلّ خطوة يخطوها تجعل الهياج الاحتفاليّ لمستقبليه أشدّ صخباً وأعلى ضجيجاً. عانق بحرارة زوجته وأبناءه وبدا شديد التأثّر،

قبل أن يبدأ بمصافحة كبار المستقبلين ومعانقتهم. لكنْ ما إن أحاطت به الجماهير التي يحاول معظمها عبثاً الوصول إليه والتبرّك بجبّته، حتّى توقّفت الكاميرات معلنةً عجزها عن اقتناص المزيد من الصور وسط غابة من البشر في هذه الكثافة.

أجواء الفرح والاحتفال استمرّت في لبنان لمدّة أسبوع. الجميع شاركوا فيها أكانوا محبّين للصدر أم حذرين منه أم خصوماً له. كلٌّ منهم كانت له أسبابه التي لا صلة لها بأسباب الآخر. لكنّ ذاك الأسبوع لم يقتصر على المسرّات والمهرجانات، فقد شهد أيضاً خمسة لقاءات مهمّة أجراها الإمام أو أجريت معه. الصحافة اللبنانيّة التي راحت تتابع تلك اللقاءات يوماً بيوم، تمكّنت من الحصول على معلومات وتسريبات قليلة قد تكون هذه أهمّها:

– بعد يومين على وصوله، زار القصرَ الجمهوريَ شاكراً الرئيس سركيس على الجهود المحمومة التي بذلها لإطلاق سراحه، والتي تجاوزت الليبيّين إلى الجامعة العربيّة والأمم المتّحدة. وقد نُقل عن الصدر قوله: "ربّ ضارّة نافعة. لقد أفهمتني هذه المحنة أنّ بلدي هو وحده الذي يدافع عنّي، وانتبهتُ إلى أهميّة أن يعيش المرء في بلد ديموقراطيّ. اليوم أعترف أنّني أخطأت خطأً كبيراً حين تحالفت مع النظام السوريَ والمسلّحين الفلسطينيّين. سامح الله [الرئيس السابق] سليمان فرنجيّة الذي دفعني إلى ذاك الموقع بسبب

تحجّره ورفضه أن يتعامل إيجابيّاً مع مطالب الشيعة المُحقّة تمسّكاً منه بصديقه كامل الأسعد. إنّ عنوان توفيق الحكيم الشهير، "عودة الوعي"، هو أبلغ ما يصف أحوالي ومشاعري اليوم. من الآن فصاعداً أتعهّد أمامك، يا فخامة الرئيس، بالدفاع عن استقلال لبنان بالقدر الذي أدافع فيه عن حقوق الشيعة ومصالحهم. فحين ينهار وطنٌ ما تنهار بالضرورة حقوق أبنائه ومصالحهم. لهذا أظنّ أنّ المهمّة الأنبل حاليّاً، والتي ينبغي للجهود كلّها أن تصبّ فيها، هي تدعيم السلم الأهليّ وتعزيزه، والتفاوض مع الحكومة السوريّة لإخراج قوّاتها وأجهزة أمنها من لبنان، ومع القيادات الفلسطينيّة والميليشيات اللبنانيّة جميعها كي ندخل في عمليّة يتأدّى عنها نزع سلاحها وتسليمه إلى القوى الشرعيّة. ولا بدّ، منعاً من التعرّض لهجوم إسرائيليّ يكون نكبةً على أهل الجنوب، من عقد طاولة مستديرة للقوى السياسيّة والطائفيّة جميعها. هناك، على تلك الطاولة، ينبغي أن نناقش أموراً ثلاثة: إمكانيّة تحييد لبنان وعزله عن نزاعات المنطقة دون عزله عن التعاطف السياسيّ مع حقوق الفلسطينيّين، ومسائل العدالة الاجتماعيّة التي تنصف الفئات الأكثر حرماناً وتوسّع قاعدة المؤيّدين للتحييد ونبذ السلاح، وطمأنة المسيحيّين الذين يدفعهم خوفهم الأقلّيّ إلى مواقف متطرّفة".

– على عكس الجوّ الإيجابيّ الذي ساد لقاءه مع سركيس، اتّسم لقاؤه مع وزير الخارجيّة السوريّ عبد

الحليم خدّام بكثير من التشنّج، بل التوتّر. فقد قال له بالحرف الواحد: "يؤسفني، يا معالي الوزير، أنّكم متحالفون مع نظام كنظام القذّافي لمجرّد أنّكم تعارضون سياسات [الرئيس المصريّ] أنور السادات. لقد لمست لمس اليد، هناك في طرابلس، كيف أنّكم مستعدّون للتضحية بأصدقاء مثلي حرصاً منكم على ما تسمّونه "تحالفاً إستراتيجيّاً" مع ذاك العقيد الليبيّ المجنون والمجرم والتافه. وهذا، يا معالي الوزير، لا يخفي رمزيّةً ما: فأنتم، في نهاية المطاف، لا يهمّكم لبنان وشعبه، رغم كلّ كلامكم عمّا تسمّونه قوميّة المعركة مع إسرائيل ووجود أهل الجنوب اللبنانيّ على خطّ المواجهة. إنّ اهتمامكم بسلطتكم وتحالفاتها هو الشيء الوحيد الذي يهمّكم. صداقاتكم يمكن أن تغدروا بها وتتخلّوا عنها، ومَن تكون هذه حاله يستحيل أن يكون صديقاً".

– وبروحيّة الاحتجاج الغاضب نفسها، تحدّث الصدر إلى ياسر عرفات: "ما تفعلونه في جنوب لبنان ليس مقبولاً أبداً. يطلق عناصركم صاروخاً من بين بيوت السكّان القرويّين الآمنين ثمّ يهربون، فيأتي الانتقام الإسرائيليّ قتلاً وترويعاً لأولئك السكّان وهدماً لبيوتهم. الناس يهجرون قراهم ويتدفّقون على بيروت التي تكاد تختنق. هذا عمل لا يطاق بتاتاً يا سيّد عرفات. إنّه يبدّد لبنان بدل أن يحرّر فلسطين، كما تزعمون. أكثر من هذا، أتخوّف من غزو إسرائيليّ أكبر وأعنف وأخطر من ذاك

الاجتياح الذي جرى قبل أشهر على خطفي في ليبيا وسمّاه الإسرائيليّون "عمليّة الليطاني". يزيد في ذعري تطوّران حدثا إبّان اختطافي: من جهة أنّ الزعامة المسيحيّة انتقلت إلى يد شابّ متطرّف وعلى صلة بالإسرائيليّين هو بشير الجميّل، ومن جهة أخرى أنّ الحياة في بيروت وفي سائر المناطق التي تسيطرون عليها، بالتشارك مع القوّات السوريّة، باتت لا تُطاق. الفوضى والتعدّيات التي تسمّونها "تجاوزات" تدفع السكّان، وعلى نحو متزايد، إلى العداء لكم. ينبغي أن تفكّروا عميقاً في ما ستفعلونه بثورتكم هذه! وأظنّ، فضلاً عن ذلك كلّه، أنّ ثورتكم، مثلها مثل النظام السوريّ، تعاني فساداً أخلاقيّاً يحملها على التحالف مع نظام القذّافي الذي لا يستحقّ إلّا الاحتقار".

– كذلك ساد الغضبُ لقاءه برئيس حركته المحامي نبيه برّي وإن كانت مودّته له قد موّهت الغضب قليلاً: "ماذا فعلتَ يا نبيه؟ أين السيّد حسين الحسيني وباقي القادة التاريخيّين لحركتنا الذين وقفوا معي منذ إنشاء "المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى"؟ (وبعد لحظة صمت وتأمّل) كم كان الحسيني مصيباً حين اعترض على زيارتي إلى طرابلس ورفض التوجّه معي إلى هناك".

ومضى السيّد الصدر: "تفرّدكم في قيادة الحركة ليس مقبولاً على الإطلاق. سوف أدعو في أقرب فرصة إلى مؤتمر ننتخب فيه قياديّين جُدداً تثق بهم القاعدة

وتمحضهم ولاءها. إنّني أعلم أنّ الخطّ الموالي كلّيّاً لدمشق، الذي تتبعه أنت، إنّما بدأ معي، حين كنت لا أزال بينكم. لكنّني، ومن دون أن أنفي مسؤوليّتي، كنت أفعل ذلك مضطرّاً، ولطالما أحسست بالحرج وأنا أدعو إلى رفع الحرمان عن المحرومين في لبنان فيما أبارك نظاماً لا يكتفي بحرمان شعبه، بل ينتهكه ويُذلّه بأبشع الطرق وأفظع الأساليب. أمّا أنت يا نبيه، وعبر المعلومات التي استطعتُ بشقّ النفس الحصول عليها في ليبيا، فتمارس الالتحاق بالنظام السوريّ بحماسة وبلا تأنيب ضمير من أيّ نوع".

ويبدو، تبعاً لمراسل صحيفة **النهار** نبيل ناصر، أنّ الصدر رطّب الجوّ بممازحته برّي: "قل لي يا نبيه، هل لا تزال كما كنتَ في شبابك بعثيّاً؟، هل فعلتَها من وراء ظهري يا ملعون!".

– رابع اللقاءات كان أكثرها حدّة وتوتّراً. الضيوف، هذه المرّة، كانوا مشايخ إيرانيّين وصلوا من طهران، في عدادهم أحد ممثّلي الوليّ الفقيه آية الله الخميني (لم يُكشف عن اسمه). الغضب في هذا اللقاء ترافق مع ارتفاع الصوت على نحو غير معروف في الصدر الذي يتحدّث بهدوء وبصوت منخفض حتّى وهو غاضب ومنفعل.

لم يجاملهم بتاتاً، حتّى إنّه بالكاد قبِلَ تهنئتهم بعودته مكتفياً برسم بسمة صفراء على شفتيه. دخل مباشرة في الموضوع: "فهمت، وأنا هنا، أنّكم تجمَعون حولكم

بعض المشايخ الصغار كي يعلنوا جمهوريّة إسلاميّة في لبنان. إنّكم بالكاد تفهمون إيران، فكيف تدّعون فهم لبنان وتعقيداته؟ أحد هؤلاء المشايخ الذي عاد إلى رشده، بعدما زارني وتحدّثت إليه، صارحني أنّكم تنوون، بعد أيّام قليلة، تفجير السفارة العراقيّة في بيروت. قال إنّكم أتيتم بعناصر عراقيّة معارضة لصدّام حسين كي ينفّذوا هذه المهمّة. هذا أمر خطير فعلاً، وأنا كلبنانيّ وكشيعيّ لبنانيّ أعترض أشدّ الاعتراض عليه وأرى فيه توريطاً لبلدي ولطائفتي. أفهم أنّكم تخوضون حرباً مع العراق، وأنتم تعرفون مدى كراهيتي لصدّام حسين بعنجهيّته وطائفيّته، فضلاً عن قتله عدداً معتبراً من أقاربي آل الصدر. لكنّني لا أقبل أبداً بتحويل بلدي إلى ملحق بتلك الحرب، بحيث تروحون تفجّرون السفارات أو ربّما تخطفون رعايا أجانب. فوق هذا، كيف يمكنني، أنا العائد من عمليّة خطف حقيرة، أن أهلّل لخطف آخرين؟

وثمّة مسألة أخرى لا بدّ من مصارحتكم بها: إنّ مقتل محمّد بهشتي، في التفجير الذي حدث قبل أشهر في طهران، لم يُثر أيّ تعاطف عندي ولم يحملني على الترحّم عليه. هذا الرجل الذي أسمته وسائل الإعلام العالميّة "اليد اليمنى للإمام الخميني"، كان شريك القذّافي في عمليّة خطفي. إنّه، ووفق معلومات مؤكّدة توفّرت لي، هو الذي حضّ حاكم ليبيا على أن يفعل ما فعله بحجّة زائفة تقول إنّني عميل للشاه وعميل

للأميركيّين. إنّني لا أحسدكم بتاتاً على قيادات من هذا الصنف".

ويظهر أنّ الوفد الإيرانيَ خرج غاضباً من لقائه مع الصدر وانتقل فوراً إلى المطار ومنه إلى طهران.

بعد أيّام قليلة، شهدت بيروت عمليّة اغتيال مجهولة المصدر للسيّد موسى الصدر. كيلوغرامات من المتفجّرات انفجرت بسيّارته التي كانت تقلّه إلى قصر بعبدا للقاء رئيس الجمهوريّة. الفرح الوطنيَ بعودته انقلب مأتماً شارك فيه جميع الذين سبق أن استقبلوه لدى وصوله إلى المطار. "تلاميذ الإمام الصدر"، وهي تسمية لم يُعرف بالضبط أصحابها، نشروا كرَاساً ضمّنوه الاستشهادات المنقولة أعلاه عن الصحف البيروتيّة وعَنوَنُوه: "وصايا الإمام في ما خصّ الأصدقاء والأخصام".

اجتماع تأسيس الجبهة العربيّة لمناهضة الإمبرياليّة

إبّان زيارة الزعيم السوفياتيّ نيكيتا خروتشوف إلى القاهرة، في أيّار/ مايو 1964، التي عُدّت تتويجاً للمصالحة الشيوعيّة–الناصريّة، بعد الخلاف حول العراق والوحدة المصريّة–السوريّة، طرح الزعيم السوفياتيّ فكرة تلقّفها الزعيم المصريّ، وإن أرفق تأييده لها بشيء من التحفّظ.

قال الأوّل للثاني: "إنّ الإمبرياليّة، خصوصاً في ظلّ ليندون جونسون، تستجمع قواها وتنقضّ على حركات التحرّر الوطنيّ من غير تمييز. هذا ما نراه واضحاً في أفريقيا حيث سبق أن صفّوا لومومبا قبل ثلاث سنوات، وهم يتآمرون على أصدقائنا الوطنيّين ككوامي نيكروما وأحمد سيكوتوري وموديبو كيتا في غانا وغينيا ومالي. كذلك نرى الشيء نفسه في أميركا اللاتينيّة حيث يحاصرون فيديل كاسترو وثورته، ونراه خصوصاً في آسيا التي تحتدم فيها الحرب الفيتناميّة، ويزدهر التآمر على قادة وطنيّين كأحمد سوكارنو في أندونيسيا. لهذا نقترح إنشاء جبهة في العالم العربيّ تضمّ القوى المناهضة للإمبرياليّة جميعها، وهي يمكن أن تشمل، فضلاً عن قيادتكم، الرئيس الجزائريّ أحمد بن بلّة والرئيس العراقيّ عبد السلام عارف والرئيس اليمنيّ عبد الله السلّال ورئيس مجلس الرئاسة السوريّ أمين

الحافظ. ذاك أنّه من الخطأ الشديد، يا سيادة الرئيس، أن تتركوا الإمبرياليّة تستفرد بكم واحداً واحداً".

ويبدو أنّ عبد الناصر ردّ بما يفيد الحماسة لهذا القرار، لكنّه ما لبث أن أضاف: "لكنّني، يا سيادة الأمين العامّ، أفضّل أن أستبعد اثنين ممّن ذكرت: أمين الحافظ الذي فرغ لتوّه من إعدام الناصريّين في سوريّا، متذرّعاً بانقلاب شنّه الضابط الوطنيّ المتحمّس جاسم علوان، وعبد الله السلّال الذي لن يفتح فمه حين أكون أنا حاضراً. وبعد كلّ حساب، فالسلّال لا يمثّل شيئاً، وأنا أستطيع تمثيله والنطق باسمه ضامناً موافقته على كلّ ما أتعهّده. وأنت تعلم، من دون شكّ، أنّ القرار في اليمن للجيش المصريّ الذي يساند السلّال، وليس للسلّال واليمنيّين".

وبدوره أصرّ خروتشوف على حضور الزعيمين السوريّ واليمنيّ. ذاك أنّ سوريّا "تتمتّع بأهميّة كبرى تعرفها أنت أكثر منّي. فإذا تركناها وحدها فإنّها ستقع حكماً في أحضان السعوديّين والأردنيّين وباقي عملاء الإمبرياليّة. أمّا السلّال، فينبغي أن لا نقلّل من أهميّة حضوره ومن رمزيّته. فالتقاط صورة له وهو مجتمع معكم أهمّ كثيراً من كلامه أو صمته في غرف مغلقة. هكذا نوصل رسالة إلى الرجعيّين في الرياض، ومن ورائهم البيت الأبيض، بأنّ الثورة اليمنيّة تحظى باحتضان عربيّ تقدّميّ واسع".

وعلى مضض، وافق الرئيس المصريّ الذي باشر التحضير للمؤتمر العتيد بتوجيه الدعوات لابن بلّة وعارف والسلّال، وبرسالة مطوّلة إلى أمين الحافظ يطالبه فيها بطيّ صفحة الماضي وفتح صفحة جديدة من "توحيد الصفّ في مواجهة أعداء أمّتنا العربيّة"، من دون أن ينسى الإشارة إلى أنّ "مصر بلدكم وبلد سائر الأحرار والشرفاء المناهضين للإمبرياليّة والصهيونيّة".

وبالفعل ففي تمّوز/ يوليو انعقد مؤتمر القادة العرب في القاهرة، وقد شاء عبد الناصر أن يتزامن الأمر مع الاحتفالات بالذكرى الثانية عشرة لانقلابه في 23 تمّوز 1952. لكنّ البداية لم تكن حميدة. فبعد كلمة قصيرة للرئيس المصريّ الذي رحّب بالضيوف وأطلعهم على أهميّة هذه المبادرة "التي تنتظرها الجماهير العربيّة منّا بفارغ الصبر، كما يعوّل عليها حلفاؤنا في المعسكر الاشتراكيّ في صراعهم مع الإمبرياليّة"، تحدّث الرئيس الجزائريّ بن بلّة بعربيّة بالكاد فهمها الآخرون لشدّة اختلاطها بالفرنسيّة، وقد صاغه لاحقاً محمّد حسنين هيكل ومعاونوه في صحيفة **الأهرام** على النحو التالي: "سأصارحكم القول إنّ النظام الثوريّ في الجزائر يتعرّض لتحدٍّ خطير يمثّله قائد جيشنا العقيد هواري بومدين. وللأمانة، فأنا لا أستطيع بتاتاً أن أتّهم بومدين بالارتباط بالإمبرياليّة، خصوصاً أنّه هو مَن قاد العمل الجهاديّ الثوريّ ضدّ فرنسا. لكنّه، مع هذا، يملك طموحاً لا حدود له، وهو يأخذ على قيادتي ما يسمّيه تخبّطاً

في إدارة البلد وتطرّفاً في اليساريّة، فضلاً عن أنّه لا يطمئنّ إلى اتّجاهي العروبيّ لأنّه يفضّل التركيز على الوطنيّة الجزائريّة".

وكي لا يتركه يمضي في استطراده، قاطعه عبد الناصر: "يا أخ أحمد، نحن هنا لمناقشة موضوع قوميّ يتعدّى هموم كلّ واحد منّا في إدارة بلده... علينا أن نُبقي العين مفتوحة على الإمبرياليّة والصهيونيّة ومؤامراتهما التي تستهدفنا جميعاً".

وهزّ بن بلّة رأسه موافقاً، ثمّ أضاف: "لكنْ يا سيادة الرئيس، كيف أستطيع أن أبقي عيني مفتوحة على الإمبرياليّة فيما عيناي الاثنتان مفتوحتان على هواري؟". وإذ ضحك الجميع بمن فيهم بن بلّة نفسه، تناول الكلام أمين الحافظ: "فلندخل في الجدّ إذاً. فلندخل في صلب الموضوع من دون لفّ ودوران. تعالوا، يا إخوان، نحرّر فلسطين. هذه هي الطريقة الأفضل لنقل الإمبرياليّة والصهيونيّة من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع. نحرّرها وبعد ذاك يكون لكلّ حادث حديث. نستطيع حالاً أن نضع خطّة نبدأ بتطبيقها يوم غد، وأنا أراهنكم بأنّ في وسع جيوشنا أن تحرّرها في أقلّ من عشر ساعات. هذه مسألة في غاية السهولة...".

لكنّ عبد الناصر، وبشيء من الاستهزاء، سأله: "وكيف ذلك يا سيادة الرئيس؟". وإذ أحسّ الحافظ بما يُضمره رئيس مصر، وقف متحمّساً وردّد بخطابيّة بالغة الانفعال:

ونحن أناس لا توسّط عندنا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

لكنْ وسط شعور الجميع بأنّ شيئاً نافراً ومُستغرَباً تسلّل إلى اجتماعهم، قطع عبد الله السلّال صمته، موجّهاً الحديث إلى الحافظ: "يا سيادة الرئيس، يبدو أنّك تحبّ الشعر مثلي، فما رأيك بمباراة شعريّة بيننا بعد انتهاء الاجتماع. أصارحك القول إنّني مع إعجابي ببيت أبي فراس الحمدانيّ في الفخر، أفضّل عليه أبيات عمرو بن كلثوم وهو القائل:

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ

تخرّ له الجبابر راكعينا

وبغضب ملحوظ، أسكت عبدُ الناصر السلّالَ وطالب الجميع بالعودة إلى الموضوع الأصليّ الذي ينعقد الاجتماع من أجله، "فنحن لسنا في سوق عكاظ يا عبد الله". وهنا تدخّل الرئيس العراقيّ عبد السلام عارف: "سوف أقول كلاماً محرجاً، فأرجو أن تتّسع صدوركم لما سأقوله. نحن لا نستطيع أن نبني جبهة مناهضة للإمبرياليّة فيما يجلس بيننا جواسيس للإمبرياليّة هم طابورها الخامس. لقد كان الرئيس بن بلّة مصيباً حين نبّهنا إلى المشكلات التي تعانيها سلطته في الجزائر. ونحن في العراق لا نقبل أن يكون بيننا بعثيّ كالسيّد أمين الحافظ الذي يمضي في قتل الوطنيّين والقوميّين في بلده، علماً أنّنا تخلّصنا للتوّ من رفاقه البعثيّين الذين عاثوا فساداً في حكم بلدنا". ومرّة أخرى تدخّل عبد

الناصر طالباً من زميله العراقيّ أن يتعالى عن حزازات الماضي لأنّنا "جميعاً في خندق واحد ضدّ الإمبرياليّة". لكنّ الحافظ الذي استفزّته إهانة عارف ردّ على الإهانة بطريقة عنيفة. فقد تقدّم باتّجاه الرئيس العراقيّ ومدّ سبّابته نحوه وقال: "أنا جاسوس يا عرص! إذا كنتَ رجلاً فاقبل التحدّي. لماذا لا نتبارز بسيفين بعد نهاية الاجتماع؟ فإمّا أن أغسل العار بقتلك وإمّا أن أقضي شهيداً... وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ". وأيضاً تدخّل عبد الناصر الذي لفّ ذراعيه حول الحافظ وحمله بعيداً، فيما كان يغمز عارف كأنّه يطلب إليه تفادي الموضوع من أصله. وإذ صمت الرئيس العراقيّ لوهلة كأنّه يستجيب لطلب زميله المصريّ الذي يملك تأثيراً معنويّاً هائلاً عليه، فإنّ أعصابه ما لبثت أن خانته. هكذا نظر باتّجاه زميله السوريّ اللدود: "أنت ولد قحبة قوّاد ابن قوّاد. مَن يقبل أن يكون قائدُ حزبه نصرانيّاً اسمه ميشال [عفلق] ومعه صابئة ورافضة ومجوس وأشخاص ما أنزل الله بهم من سلطان لا يكون دمه دماً عربيّاً صافياً". وإذ حاول الحافظ مجدّداً أن يستجمع قواه لتسديد بعض اللكمات إلى شاتمه، سُمع السلّال يقول بصوت منخفض كأنّه يتمتم: "عبد السلام على حقّ. موشيل، ما أدراك ما موشيل! طبعاً إنّنا نريد عرباً أقحاحاً".

لقد اضطرب الجوّ بالكامل فيما اضطرّ عبد الناصر أن يرفع صوته، بعدما انتقل إلى وسط القاعة، كي يحول

دون وصول الحافظ إلى عارف أو السلّال: "إيه دا يا إخوان؟! دي مهزلة! الجماهير العربيّة تنتظر منّا الأمل والعمل. الإمبرياليّة تحاصرنا وتهدّدنا، وأنتم غارقون في مسائل تافهة وسخيفة. إنّني أقترح البدء بالإجابة عن سؤال محدّد: أين تقع ساحة المواجهة الأساسيّة مع الإمبرياليّة؟ أمّا جوابي، فهو أنّها تقع في اليمن (صفّق السلّال منتشياً ورسم بإصبعيه علامة النصر الشهيرة). هناك يخوض جيشنا المصريّ (قاطعه الحافظ: العربيّ المصريّ، لكنّ عبد الناصر لم يكترث) معركة بقاء وفناء ضدّ قوى الإمامة الرجعيّة المدعومة من الرجعيّتين السعوديّة والأردنيّة ومن ورائهما شاه إيران وأميركا وبريطانيا. ينبغي، كما أرى، أن تساهموا جميعاً في إرسال قوّات عسكريّة إلى اليمن كي يقاتلوا إلى جانب جيشنا".

الحافظ: "وفلسطين! ألا نحرّر فلسطين!؟".

السلّال: "منذ أيّام يهود خيبر كان ينبغي أن نحرّر فلسطين. أنا لا أستثني من اليهود إلّا السموأل".

عبد الناصر (بعد أن رمق السلّال بنظرة شديدة التجهّم أدّت إلى إسكاته): "بلى نحرّرها، لكن ليس الآن. الآن هناك اليمن. الطريق إلى فلسطين تمرّ من اليمن". وإذ تقدّم السلّال باتّجاه عبد الناصر يريد أن يسترضيه بطبع بعض القُبَل على جبينه وخدّيه، تدخّل عارف: "في ظنّي أنّ الطريق إلى فلسطين تمرّ من إيران. فالشاه الفارسيّ هو اليوم الخطر الأكبر على عروبتنا وإسلامنا.

إنّه حليف إسرائيل الأوّل وهو يدعم الأكراد في شمال العراق كي يقسّموا بلدنا ويضعفوه. (مخاطباً عبد الناصر) لا تؤاخذني يا سيادة الرئيس، لكنّني أعتقد أن تأثيرنا سيكون أكبر إذا بدأنا بإيران حيث نستطيع أن نفتح جبهة عسكريّة تؤدّي إلى تحرير عربستان".

الحافظ: "لا داعي لطريق إلى فلسطين. يمكن أن نتوجّه مباشرة إليها من الجولان. لكنّكم إذا كنتم مُصرّين على طريق ما نُظهر فيها رجولتنا ونُرهب خصومنا اليهود قبل أن نلقاهم في ساحة الوغى، فأنا أقترح تركيّا. في الصراع معها، ولا تنسوا أنّها عضو في "الحلف الأطلسيّ"، نستطيع أن نحرّر الإسكندرون ومنها نتّجه فوراً إلى فلسطين".

بن بلّة: "أخالفكم الرأي يا زملائي الكرام. أعتقد أنّ مجابهة الإمبرياليّة تستدعي تحديداً آخر للطريق إلى فلسطين. إنّني أظنّ أنّ هذه الطريق لا تمرّ إلّا من المغرب. لماذا المغرب؟ إنّه بلد عربيّ ومسلم كبير ومؤثّر، وعلينا، نحن العرب، أن نطهّر أنفسنا قبل أن نطهّر إيران وتركيّا وسواهما، ثمّ إنّنا من خلال المغرب نوصل رسالة قويّة جدّاً للأوروبيّين، وثمّ الأميركيّين. الأسرة المالكة في المغرب عميلة للإمبرياليّة من غير شكّ...".

في هذه اللحظة، وقع عبد الناصر أرضاً ومات.

الخطّة الإيرانيّة لاغتيال مقتدى الصدر

استدعى الفريق محمّد علي جعفري، قائد "الحرس الثوريّ" في إيران، قاسم سليماني، قائد "فيلق القدس" التابع للحرس. الاستدعاء كان ملحّاً: "عد إلى طهران فوراً. غادر بغداد في أسرع وقت. التحدّي الذي نواجهه لا يقبل البطء والتأخّر. المراجعة الصارمة لا بدّ منها".

سليماني، الذي سبق أن ضربه الغرور فظنّ نفسه أهمّ من قائده جعفري، امتثل فوراً وقفل راجعاً. ذاك أنّ قائد "الفيلق"، الموصوف بالذكاء، أدرك سبب الاستدعاء حال قراءته وأحسّ ضعف موقعه: إنّه نتائج الانتخابات العراقيّة وفوز السيّد مقتدى الصدر وائتلافه "سائرون" بالكتلة الأكبر في البرلمان الجديد.

لقد كلّفت القيادة السياسيّة في إيران قاسم سليماني مسؤوليّة العراق، فضلاً عن سوريّا والمنطقة الممتدّة حتّى غزّة، فإذا بالنتيجة تأتي على هذا النحو!

لقاء القياديّين الإيرانيّين بدأ عاصفاً حتّى قيل أنّ جعفري كان يصرخ ولم يكن يتكلّم: "أهذه حصيلة نشاطك العظيم في العراق؟ ألا تكفينا المهانات التي يعرّضنا لها اليهود بضرباتهم الجوّيّة في سوريّا؟ كيف تركتَ الصدر يتقدّم بحيث بات لائتلافه "سائرون" اليد الطولى في تشكيل الحكومة؟ إنّهم قد يفرضون شروطهم على حيدر العبادي، وهو رخو جدّاً كما تعلم! هؤلاء الأوغاد الذين فازوا في الانتخابات هم الذين

كانوا يهتفون: "إيران بَرّه برّه/ بغداد حرّه حرّه"، وأين؟ في عاصمة العراق نفسها؟ هل هذا شيء قابل للتصديق؟ هل يمكن أن نكون نحن مَن يزرع وثامر السبهان والأميركيّون مَن يحصد؟ اسمع يا سليماني: بعد إلغاء الأميركيّين للاتّفاق النوويّ معنا صار إمساكنا بالأوراق كافّة أهمّ من ذي قبل. لكنّ الورقة العراقيّة تبقى الأهمّ. معلوماتنا أنّ وزير خارجيّتهم الجديد مايك بومبيو ينوي إصدار لائحة عقوبات جديدة تستهدف خنقنا اقتصاديّاً، وأنت شخصيّاً سيكون رأسك أوّل الرؤوس المطلوبة بدلالة دورك الكبير فضلاً عن التركيز الإعلاميّ الواسع عليك...".

"لكنّ نتائج جهودي في سوريّا لم تكن سيّئة. أما بالنسبة إلى العراق، فقد توجّهت إلى بغداد للتأثير في الانتخابات، لكنّ الصدر ركب موجة الفساد بنجاح لم يكن يتوقّعه أحد... زاد الطين بلّة أنّ حيدر العبادي، الذي يخفق قلبه دائماً لأميركا ودول الخليج، يرفض إنشاء "تكتّل طائفيّ" على النحو الذي فعلناه عام 2010 في مواجهة إياد علّاوي...؟".

"أعرف يا قاسم أنّك نجحت في سوريّا، لكنّك لم تنجح إلّا لأنّ الأميركيّين غابوا عن المسرح الذي نرقص نحن فوقه. إلى هذا، ماذا تنفعنا سوريّا إذا خسرنا العراق؟ كيف نتواصل معها؟ انظر إلى الخريطة جيّداً يا قاسم".

في هذه اللحظة، بدا أنّ شيئاً وحيداً يمكن أن يهدّئ الأمور ويبرّدها: إنّه اتّصال من آية الله الخامنئي. وبالفعل جرى هذا الاتّصال الذي كان بمثابة أمر موجز ومحدّد للاثنين: "لا وقت لخلافاتكما الآن. اخرجا باتّفاق حاسم حول خطّة عمل قابلة للتنفيذ بسرعة. فليتمّ هذا مهما كان الثمن".

سليماني تنفّس الصعداء ورفع رأسه بعد طول إطراق، ليقول العبارة التي لم يكن يتوقّعها جعفري: "نغتال مقتدى الصدر".

(بشيء من الدهشة) "ماذا يا قاسم؟".

"نعم، نغتال مقتدى الصدر".

"لكنّنا لم نزل حتّى الآن نعاني بسبب موضوع رفيق الحريري في لبنان. هل نسيت المحكمة الدوليّة وتصعيد الأجواء ضدّنا في العالم العربيّ بحيث اضطررنا إلى تفجير حرب 2006 مع اليهود لتحويل الأنظار عن اغتيال الحريري ومضاعفاته؟...".

"هذا شيء مختلف تماماً. الحريري سنّيّ، أمّا في حالة مقتدى الصدر، فيمكننا، عبر استخدام نفوذنا الأدبيّ على شيعة العراق، وباقي أشكال التأثير عليهم، أن نطوي الصفحة بسرعة. طبعاً ستمرّ أيّام قليلة تشهد حرق إطارات في الشوارع وربّما أعمالاً طائشة أو عنفيّة هنا أو هناك، لكنْ سيكون في وسعنا أن نحرف الأنظار بسرعة في اتّجاه آخر...".

هنا طلب جعفري من سليماني أن يوقف الشرح: "المسألة يلزمها تفكير طويل ومتأنٍّ. لقد أشعرتني بصداع لا يحتمله رأسي. أفضّل أن تضع اقتراحك هذا في تقرير ترسله إليّ غداً. هكذا أدرسه مليّاً قبل أن أرفعه إلى سماحة القائد الخامنئي، أدام الله ظلّه، مساء يوم غد".

وبالفعل، ولشدّة ما كان سليماني قد فكّر بالمسألة فيما كان عائداً من بغداد، لم يستغرقه إعداد التقرير أكثر من ساعة واحدة، فماذا يقول التقرير؟

بعد البسملة والحمدلة والصلاة على محمّد وسائر الأنبياء والمرسلين، نقرأ التالي: "لقد بات اغتيال مقتدى الصدر ضرورة إستراتيجيّة لإيران من أجل ضمان استقرار وضعنا في العراق، وبالتالي في باقي المنطقة. وهذا سيكون، من دون شك، بالغ السهولة تقنيّاً، لكنّه أيضاً بالغ السهولة سياسيّاً. كيف؟ لقد ارتكب مقتدى الصدر، بسبب طباعه وغرابة أطواره وكثرة تقلّباته، عدداً من الأعمال المتناقضة التي خلّفت أعداءً كثيرين له، وهذا ما يوفّر لنا، إذا عرفنا كيف نستخدم الأمر دعائيّاً وإعلاميّاً، حقلاً واسعاً جدّاً من القوى التي يمكن توجيه الاتّهام إليها وإبعاد الشبهة عن إيران:

– فالصدر متّهم بقتل العميل الأميركيّ السيّد عبد المجيد الخوئي في مرقد الإمام عليّ في النجف عام 2003، فلماذا إذاً لا يُقدم على قتله شخص مقرّب من آل الخوئي يريد أن يثأر لعبد المجيد؟

– كذلك سال دم كثير بين الصدر والأميركيّين، وهو سبق أن خاض حربين ضدّهم في 2004 ثمّ في 2007، وقال إنّ 11 أيلول/ سبتمبر، الذي يقدّسونه في أميركا، كان معجزة وبركة من الله. فلماذا لا يكون الأميركيّون وأسيادهم اليهود من ينفّذون قتله؟

– وفي 2006 كان مقتدى زعيم الميليشيا الطائفيّة الأنشط في الحرب الأهليّة مع السنّة إثر تفجير المرقدين في سامرّاء. يومها فتكث "فرق الموت" التابعة له بهم بلا تمييز، فلماذا يُستبعد أن يقتله سنّةٌ لا ينسون له ذلك وإن تحالف مع بعضهم لاحقاً؟

– إلى هذا وذاك، اعترف مقتدى ذات مرّة بولاية الخلفاء الراشدين ونفى قتل يزيد للحسين، سيّد شباب أهل الجنّة، وأكمل هذه الانحرافات بالتقارب الأخير مع السعوديّة والخليجيّين العرب. فلماذا لا يبادر إلى قتله شيعيّ عراقيّ يكون وفيّاً لتعاليم دينه ومذهبه ومخلصاً للتشيّع في العراق؟

– وحين نُفّذ حكم الإعدام بصدّام حسين، وسط مرارة سنّيّة واسعة، كانت جماهير مقتدى هي التي تهتف "مقتدى مقتدى"، مبتهجة ومحتفلة بإعدام الطاغية، فلماذا لا يقدم على قتله صداميٌّ يريد الثأر لزعيمه المقبور؟

– ومقتدى، في الآونة الأخيرة، تحالف مع الشيوعيّين، وهذا أيضاً ممّا تكرهه جمهرة المؤمنين الشيعة ممّن لا زالوا يلتزمون بفتوى السيّد محسن

الحكيم في تحريمه الانتساب إلى "الحزب الشيوعيّ العراقيّ". هؤلاء أيضاً يمكن أن يقتلوا مقتدى.

إلى جانب هذه الاحتمالات لا ينبغي أن يمنعنا مانع من توريط بعض أتباعنا لتحويل الأنظار عن دورنا:

– آل الحكيم من العائلات الدينيّة التي لا تقلّ أهميّة عن آل الصدر، وهم لن يكونوا مرتاحين لدور مقتدى الجديد، وقد يفكّرون في قتله... وعلى أيّ حال لا ينبغي أن يُربكنا ذلك لأنّ التحاق آل الحكيم بنا تراجع في السنتين الأخيرتين وباتوا يتحدّثون هم أيضاً عن "الاستقلاليّة"، رغم أنّنا نحن من صنعناهم سياسيّاً في طهران.

– وهناك نوري المالكي الذي كثيراً ما هاجمه الصدر وشهّر به واتّهمه بالفساد والإفساد. وكلّنا نعلم أنّ المالكي يقتل حين يُضطرّ إلى ذلك.

– وقد طرح الصدر الفكرة الخطيرة عن تذويب الميليشيات الشيعيّة في الجيش العراقيّ، غير مكترث بحجم المصالح التي يتهدّدها اقتراح كهذا. فلنأخذ مثلاً أتباعنا في "عصائب أهل الحقّ" الذين انشقّوا أصلاً عن مقتدى ثمّ مزّقوا صوره... ماذا ينقص هؤلاء كي يقتلوه؟

– وينبغي ألّا ننسى أنّ والده السيّد محمّد صادق الصدر عاش سنوات طوالاً قريباً جدّاً من صدّام حسين قبل أن ينقلب عليه الأخير ويغتاله. وهذا يعني وجود

كارهين كثيرين للصدر الوالد يمكن أن يفكّروا في الثأر من ابنه.

– كذلك لم يوفّر مقتدى بشّار الأسد فانتقده وانتقد المشاركة في حربه كما دعاه إلى التنحي. وبشّار، كما يعرف العالم كلّه، يقتل بالآلاف ومئات الآلاف كي لا يتنحى. فهل تردعه عن ذلك حياة مقتدى الصدر؟

– حتّى "حزب الله" اللبنانيّ، أهمّ استثماراتنا في الخارج، يمكن توريطه إذا لزم الأمر وتعميم رواية تقول إنّ خلافاً فقهيّاً بين الإثنين أدّى إلى اغتيال مقتدى. والحزب اللبنانيّ يمكن أن ينفّذ كلّ ما نطلبه منه بما فيه تنفيذ العمليّة ذاتها، وهو ماهر في هذه الخبرات التي درّبناه عليها، فضلاً عن استعداده لتحمّل كلّ ما يحوّل الأنظار عنّا.

فوق هذا، هناك اعتبارات تسهّل اغتيال مقتدى وتحويل موته إلى حدث عاديّ يُنسى سريعاً. فهو نفسه كثيراً ما تحدّث عن تعرّضه لمحاولات اغتيال، حتّى بات بقاؤه على قيد الحياة هو المستغرب. ثمّ إنّه من عائلة تعوّدت على تلقّي ضربات كبرى من هذا النوع: مقتل أبيه وإخوانه مشهور، وكذلك إعدام قريبه محمّد باقر الصدر وأخته بنت الهدى في 1980، وقبل ذلك اختفاء قريبه الآخر موسى الصدر في ليبيا. إنّها عائلة معتادة على الكوارث وتطبّق المبدأ الحسينيّ "الموت لنا عادة".

شيئان لا بدّ من أن أختم بهما هذا التقرير:

الأوّل، التوكيد على ألّا يعرف حسن روحاني بشيء من هذه الخطّة. دعه يمضي في تصديق نفسه أنّه رئيس لجمهوريّتنا، وليمضِ وزير خارجيّته محمّد جواد ظريف في إطلاق التصاريح والمواقف الكبرى. معرفتهما بالخطّة تضرّ كثيراً.

الثاني، أنّ الاغتيال يبدّد الكتلة الجماهيريّة الملتفّة حول الصدر، وهذا جيّد في مطلق الأحوال إذ نتخلّص من أيّ قوّة متماسكة للشيعة العراقيّين. وهؤلاء، في نهاية الأمر، ليسوا سوى عرب.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ. صدق الله العظيم.

قاسم سليماني".

حول الكتاب

نبذة

ماذا لو انتصر عبد الناصر في حرب 67؟

ماذا لو عاد الإمام الصدر من ليبيا؟

ماذا لو احترقت الطائرة التي أقلّت الخميني إلى طهران؟

ماذا لو وقع لبنان عام 1962 تحت سلطة الحزب السوريّ القوميّ... لساعات؟

ماذا لو خاض لبنان حرب 67؟

ماذا لو نجا رفيق الحريري من محاولة الاغتيال؟

ماذا لو انتصر حمدين صبّاحي على عبد الفتّاح السيسي عام 2014؟

ماذا لو تصالح البعثان واتّحد العراق وسوريّا؟

أحداث متخيّلة مهداة «إلى الذين يملكون من الخيال ما يتيح لهم رؤية احتمالات أخرى ممكنة دائماً، والذين يملكون من الشجاعة ما يتيح لهم السخرية من المقدّسات».

عن المؤلف

يوسف بشير كاتب وصحافي لبناني.